من روائع الأدب الأمريكي المعاصر



اليكس هيلي

مؤلف رواية "جذور"

عيد ميلاد مجيد

الأهرام مركز الأهرام للترجمة والنشر

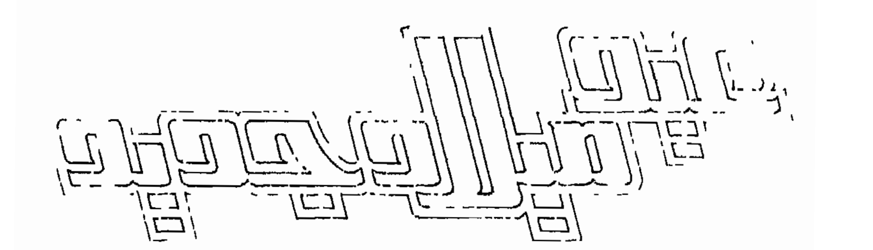
ترجمة وتقديم

د. محمد عناني

من روائع الأدب الأمريكي المعاصر

اليكس هيلي

مؤلف رواية "جذور"



ترجمة وتقديم

د. محمد عناني



الطبعـة الأولـى
١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء القاهرة
تليفون ٧٤٨٢٤٨ - تلكس ٩٢٠٠٢ يوان

تصميم الغلاف
عبدالغني ابوالعينين

المقدمة

« **عيد ميلاد جديد** » رواية من نوع خاص . فمن ناحية الطول نجدها أقصر مما اعتدناه فى الروايات العالمية ، ومع ذلك فهى لا تندرج ـ بسبب ثراء مادتها وشخصياتها وفن صنعتها ـ فيما يسمى بفنون الرواية القصيرة ـ (نوفلا) و (نوفيليت) ـ أو القصة القصيرة الطويلة . وهى رواية من نوع خاص لسبب آخر ـ فهى تعتمد على حبكة درامية تقترب بها كل الاقتراب من فن المسرح ، ولكنها مع ذلك تتحرك فى حرية داخل الإطار العريض للأيام العصيبة التى سبقت الحرب الأهلية الأمريكية ، من مكان إلى مكان ، وإن كان الزمان محدودًا بالشهور السابقة على عيد الميلاد . وهى رواية من نوع خاص لسبب أخير ، وهو التزامها الدقة التاريخية فى ذلك الإطار الذى أشرت إليه مما يجعلها من الروايات الجديدة التى شاعت فى الغرب منذ الستينات والتى استطاعت المزج بين الواقع والخيال ، أو بالأحرى إقامة الأحداث الخيالية على أسس تاريخية واقعية ـ فيما يسمى برواية الحقائق .

والإطار العام للرواية هو الأدب الأمريكى الحديث ، أما إطارها الخاص فهو أدب السود من أبناء أمريكا الذين اتجهوا فى كتاباتهم بصفة خاصة إلى معالجة قضاياهم فى نطاق القضايا الإنسانية العامة ، ومنهم أليكس هيلى الذى اشتهر أو أشهرته رواية « **جذور** » (١٩٧٦) ثم عاد بعد هذه السنوات ليقدم هذه

الرائعة - « **عيد ميلاد جديد** » . أما الإطار العام - أى الأدب الأمريكي - فلم يعد فى حاجة إلى تعريف أو تقديم بعد أن ازدهر فى القرن العشرين فى كل الفنون الأدبية من قصة ورواية ومسرح وشعر ونقد ، ولم يعد من اليسير كما كان الحال فى بداية هذا القرن أن نقول إن ذلك اللون من الشعر « أمريكى » الطابع لابتعاده عن البيئة الثقافية الأوربية مثلاً ، أو إن هذا اللون من الرواية أمريكى الطابع لأنه يعالج قضايا خاصة بالعالم الجديد ، وقس على ذلك فنون المسرح والقصة القصيرة والمقال الأدبى . فالواقع أن الأدب الأمريكي فى القرن العشرين قد شق الطريق إلى قمم الأدب الإنسانى الرفيع فتسنمها ، ثم شق طرقًا أخرى إلى ذرى أخرى ، فاتبعه الكثيرون ممن كانوا يعتبرونه رافدًا أوربيًا . وهل ثم أدل على ذلك من ريادة النقد الأمريكي للمدارس الجديدة فى تناول النصوص الأدبية منذ الخمسينات ؟ أى أن الأدب الأمريكى الذى كان رافدًا قد أصبح نهرًا رئيسيًا تصب فيه روافد متعددة من شتى بقاع الأرض ، وربما كان ذلك كما يقول كريستوفر بيجسبى بسبب اتساع نطاق التجربة الأمريكية التى كانت فى بدايتها « أوربية النشأة والتطور . . . ثم أصبحت عالمية الإنجاز والتوجه » - ولا شك أن بيجسبى - بحكم عمله كأستاذ للدراما فى انجلترا - يعنى فن المسرح بالدرجة الأولى ، ولكن ما يقوله ينطبق على سائر الفنون الأدبية .

وليس معنى هذا أن الأدب الأمريكى الحديث قد انفصل عن التيار الرئيسى للأدب الأمريكي - وهو التيار الذى ندرّسه فى الجامعات ونقصره على القرن التاسع عشر وبداية القرن

العشرين ـ فالواقع أننا نستطيع ، رغم شتى التيارات التى يحفل بها الأدب الحديث فى العالم الجديد ، أن نرصد اتجاهات متصلة ـ فى فن الصنعة والشكل الفنى بصفة عامة ـ وموضوعات متكررة لا أحسب ان أحدًا يجهلها ، وإن كان من المفيد أن نومىء إليها مثل معنى الحرية ، ومعنى الحضارة ، وصراع الذات الإنسانية مع المجتمع الذى يغلها بأصفاد العادة وأصفاد التقاليد ، ومعنى الترف الذى أتت به الانتصارات العلمية المتوالية ، ومحاولة الخروج من القوالب الاجتماعية التى نشأت فى كنف الحياة الحديثة التى تسيطر عليها الآلة وما إلى ذلك . أى أن الموضوعات الرئيسية فى الأدب الأمريكى تشترك مع مثيلاتها فى الآداب الأوربية من حيث « المادة الإنسانية » وإن كانت تختلف عنها فى تأكيدها على عنصر « التحول » أى الإحساس بأننا نعيش فى عالم يتغير من يوم ليوم ، ومن ثم تتغير فيه دلالات القيم التى ورثناها عن أسلافنا الذين عاصروا العالم القديم بثباته وانتظامه واستقراره .

ولأضرب مثلاً واحدًا من هذه القيم ألا وهو قيمة « الحرية » . إن أمريكا بلاد فتية ، تقاطر عليها الناس من شتى أرجاء المعمورة منذ اكتشافها وانهالت عليها « أحلام » البشر من كل حدب وصوب ، فانخرط الجميع فى « البناء » ـ كل يبنى لنفسه عالمًا جديدًا ، فى مجتمعات جديدة ، ينفصل بعضها عن البعض ، وهم جميعًا يتطلعون إلى مستقبل نفض عن نفسه أغلال الماضى . كان كل واحد يحلم ، وكانت الأرض معطاء ، فلم تبخل عليهم بتحقيق الأحلام ، ثم دار الزمن دورته ، وتقدم العلم فانهارت

الحواجز بين المجتمعات المختلفة وبين الأفراد، وأشرق عصر غريب - عصر يجمعهم رغم أنوفهم، ويُذكّرهم بل ويهزهم هزًا بذكر «الماضى». وفجأة - وربما كان ذلك بُعيد الحرب العالمية الأولى فحسب - أحس الأدباء فى أمريكا أن الأحلام التى جسدها كبار الشعراء وقيمة الحرية التى كانت «مطلقة» قد أصبحت مقيدة، وأن البلد الفتى هو فى حقيقته جزء لا يتجزأ سن عالم الماضى، وأنه من المحال على الأمريكى فى هذا القرن أن يتحدث عن الحرية المطلقة.

لقد أصاب التحول - كما يقول البروفيسور رايموند وليامز - قيمة الحرية نفسها لأول مرة فى تاريخ أمريكا حين أحس الأدباء أنهم أبناء هذا العصر وأبناء هذا العالم الواحد. وكان التحول فى اتجاه تأكيد هذه القيمة والإصرار عليها، فكأنما أحس العالم الجديد أنه ينبغى أن يظل جديدًا - أى أن عليه أن يحمل لواء الدعوة للمدينة الفاضلة أيًا كانت العراقيل التى يصطدم بها أبناؤه. وكل منا يذكر مقولة توماس جيفرسون - أحد أوائل رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية - عن مثله الأعلى فى حرية الإنسان فى العمل والفكر والإحساس والقول، وكل منا يعرف كيف تعرضت هذه المقولة لتقلبات القرن التاسع عشر وقلاقله التى بلغت أوجها فى الحرب الأهلية الأمريكية - حرب التحرير الاجتماعى الطاحنة. وهكذا وجدنا فى الأدب الأمريكى من لا يملك إلا أن يواجه قيمة الحرية فى سياقها الاجتماعى الجديد أولاً، ثم فى سياقها العالمى الجديد ثانيًا.

وكان من ثمار انتصار الحرية - سياسيًا واجتماعيًا - بروز ما

يسمى بأدب السود أو الزنوج أو الأفروأمريكيين ـ أى الأمريكيين من ذوى الأصول الإفريقية . وهذا هو الإطار الضيق الذى تقع فيه رواية « **عيد ميلاد جديد** » . كانت الحرية فى بداية القرن مثلاً أعلى ـ كما قلت ـ وكان التصور العام لها تصورًا شاعريًا يكاد يقتصر على أدب البيض . وكان الانفصال كبيرًا بين الحياة فى المصنع والمكتب والشارع ، وبين الحياة فى صفحات الكتب . فالناس تقول كلامًا أصبح تراثًا لا نزاع عليه ، وتحيا واقعًا يتفاوت حظه من القبول والرفض بتفاوت الأحوال الاجتماعية . وكانت العلة الأولى كما يقول مايكل كوك فى كتابه « **أدب الأفرو أمريكيين فى القرن العشرين** » (١٩٨٤) هى أن العيون التى كانت تبصر المشكلة كانت عيون الرجل الأبيض ، لأن التراث الحافل بالقيم الرفيعة كان يتضمن أيضًا عادات اجتماعية شاعت فأمعنت فى الشيوع ، وساعد على شيوعها فى بدايات القرن طبيعة البلاد الشاسعة المترامية وعدم قدرة وسائل الإعلام على النفاذ عبر الحدود التى تفصل الولايات بعضها عن بعض ، مما أغرى الكثيرين من النقاد باتهام المجتمع والأدب الأمريكى جميعًا بالانحصار فى حياتهم الخاصة ـ وهى حياة كانت دوائرها تضيق بدلاً من أن تتسع حتى لكأنما تقتصر على الذات الفردية وحدها .

وبعد الحرب العالمية الأولى ـ كما قلت ـ حدث التحول الكبير فى معانى القيم الموروثة ومعانى الأحلام الأولى ـ وذلك حين بد الأدباء السود يكتبون الشعر والقصة والمسرح دون إفصاح عز قضاياهم الأولى ، إذ كانوا قد تنسموا روح التغيير ، وكانو يتحسسون طرقهم فحسب . وكانت البداية إن شئنا التحديد بعد م يسمى بنهضة هارلم فى العشرينات عندما أفصح الكتاب عن مول

« الزنجى الجديد » أى ذلك القادر على المشاركة فى الحياة الاجتماعية بعيدًا عن تراث التمييز العنصرى . ولكن هذه النهضة كانت تحمل فى طياتها مفارقة غريبة وهى الاتجاه إلى التهوين من أهمية اللون الأسود ، أى أهمية الاختلاف العنصرى . وهكذا وجدنا ثلاثة من كبار كتاب الزنوج الأمريكيين فى تلك الفترة وهم : لانجستون هيوز ، و كاونتى كالين ، و جين تومر يرفضون رفضًا باتًا فكرة الكفاح من أجل الاعتراف بوجود الزنوج على مسرح الحياة الأدبية ، أو ضرورة تصوير الزنوج فى أدبهم ، إذ أن هذا معناه فى رأيهم تأكيد الاختلاف والتمييز مما يحبط قضية المساواة التى يؤمنون بها .

ولا أجد أدل على ذلك من قول هيوز الشهير حول هذه القضية :

> « إننا ـ نحن شباب الكتاب من الزنوج ممن يبدعون الأدب اليوم ـ نعتزم التعبير عن ذواتنا الفردية ذوات البشرة السوداء دون خوف أو خجل . فإذا رضى البيض وسعدوا رضينا وسررنا . أما إذا لم يرضوا ولم يسعدوا فلن نكترث لهم . فنحن ندرك جمالنا وندرك قبحنا . فها هو الإفريقى يبكى ، وها هو الإفريقى يضحك ! فإذا رضى الملونون وسعدوا رضينا وسررنا ، وإذا لم يرضوا لم نكترث لهم أيضًا . إننا نبني معابدنا من أجل الغد كأقوى ما تكون المعابد ، ونقف على قمة الجبل أحرارًا فى دخائلنا » .

ويختلف النقاد حول طبيعة هذه المرحلة من مراحل نشأة أدب الزنوج، فبينما يتجاهلها تمامًا دانيل هوفمان محرر كتاب «**دليل هارفارد إلى الأدب الأمريكي المعاصر**» (١٩٧٩) باعتبارها مرحلة إرهاص لا مرحلة إنجاز، يعترف بها مايكل كوك في كتابه الذى سبقت الإشارة إليه، ويفرد لها فصلاً كاملاً باعتبارها مرحلة «الحجاب المزدوج». وخلاصة تفسيره لها هى أن الحياة التى كان الزنوج يعيشونها فى مطلع القرن فرضت عليهم حجابًا، أو أقامت حاجزًا بينهم وبين المجتمع؛ وهذا هو الحجاب الأول. أما الحجاب الثانى فهو ذلك الذى فرضه الكاتب الزنجى على نفسه حين اختار أن يقيم علائق مباشرة مع مجتمعه من السود إما بأنه يتوجه إليهم بالحديث فحسب، أو بأن يتناول حياتهم وقيمهم وحسب فى أدبه. ولذلك ظل جيل كامل من الكتاب الذين ذاعت أعمالهم وانتشرت فى فترة ما بين الحربين حبيس هذا الحجاب المفروض من الخارج ومن الداخل معًا ـ مما أثر فى مسار الأدب الزنجى بصفة عامة.

أما المرحلة الثانية فى تطور هذا الأدب فهى مرحلة ما يسميه كوك بالعزلة. وأعتقد أن ما قرأته من روايات لبعض كتاب تلك الفترة يؤيد هذه النظرة إلى حد كبير ـ إذ تتخطى الشخصيات من الزنوج ذلك السور أو الحاجز الاجتماعى ـ أى أنها تكسر حدود «الحجاب» الاجتماعى ـ دون أن تفلح فى كسر حجاب العزلة الذاتية. وأهم روايتين فى هذا الصدد هما: رواية «**ابن البلد**» لمؤلفها ريتشارد رايت، ورواية «**الرجل الخفى**» لمؤلفها رالف إليسون ـ رغم اختلافهما الشديد فى النظرة الاجتماعية. إذ تعتبر

الأولى عماد حركة الاحتجاج على وضع السود فى أمريكا ، بينما يعتبر كثير من النقاد أن « **الرجل الخفى** » تتضمن تسليمًا بقيم عالم الرجل الأبيض . وربما كان علينا أن نذكر رواية أخرى من روايات تلك الفترة الا وهى رواية السيدة زورا نيل هيرستون وعنوانها « **كانت عيونهم تتطلع إلى الله** » . ولو أن هذه تختلف أيضًا فى نهايتها التى تتميز بالصراع بين قبول الحجاب الاجتماعى ، وبين تحقيق الذات بصورة رومانسية . ولا نستطيع أن ننهى حديثنا عن هذه المرحلة دون ذكر روايتين لم تلقيا حظهما من الاهتمام ، وإن كانتا تمثلان هذه المرحلة خير تمثيل وهما . رواية « **البدائى** » لمؤلفها تشستر هايم ، ورواية « **الشارع** » لمؤلفتها آن بترى ، فهما تشتركان مع رواية « **ابن البلد** » فى تصويرهما لجريمة القتل التى تمثل الفشل المطلق فى الاندماج فى المجتمع ، وتعتبر دليلاً على العجز التام عن قبول الواقع . وإذا كانت مرحلة « العزلة » هذه تتضمن لحظات تواصل لاشك فى صدقها ، فالواقع أن لحظات التواصل عابرة ولا تتيح القدر الكافى من العلاقة الحميمة التى تعيد للشخصية الإنسانية كيانها الاجتماعى .

أما المرحلة الأخيرة ، فهى مرحلة إزالة الحجب جميعًا وإقامة العلاقات الصادقة داخل المجتمع كما يصورها أبطال العديد من الروايات التى كتبت بعد الحرب العالمية الثانية ، ووصلت إلى أرفع درجات الإحكام الفنى فى الثلاثين عامًا الأخيرة . ويعرض كتاب « **الرواية الأفرو امريكية منذ عام ١٩٦٠** » (تحرير بيتر براك وفولفجانج كارير) (١٩٨٢) لأهم الاتجاهات الأدبية فى أدب الزنوج فى أمريكا فى هذه المرحلة التى يمكن - إن شئنا التحديد -

أن تنقسم تاريخيًا إلى عدة مراحل هى الأخرى. فهى تبدأ من حيث انتهى ريتشارد رايت فى روايته «**أبناء العم توم**»، وإلدريدج كليفر فى روايته «**نفس على الجليد**». وأهم كتابها فى نظرى هو الشاعر مايكل هاربر. وعندما وقع فى يدى ديوان هاربر وعنوانه «**صور القرابة**» (١٩٧٧) أيقنت أننى أمام شاعر يعانى مأساة مجتمع بأسره، وأن «صور القرابة» أو أشكال العلاقات لديه أعقد من أن تصنف داخل المراحل التى يولع النقاد بها. بل إن فكرة المراحل بصفة عامة فكرة تعتمد على التبسيط الشديد، فالمراحل تتداخل تداخلاً زمنياً إلى الحد الذى يجعل وضع الفواصل أمرًا متعذرًا بل مستحيلاً، ولكننا نحاول وحسب أن نقدم للقارىء صورة موجزة مبسطة.

ولذلك فعندما أقول إن مرحلة إزالة الحجب التى تسبق الاندماج أو الترابط قد بدأت من حيث انتهى إلدريدج كليفر فى روايته «**نفس على الجليد**» فأنا لا أعنى على الإطلاق أنه ينتمى للمرحلة السابقة - كما يوحى بذلك التعبير الذى اخترته - ولكننى أعنى أن روايته تبشر بمرحلة جديدة ربما كانت تنتمى إليها. فالرواية تعتبر صراعًا مريرًا من أجل تحقيق العلاقة الوطيدة بين السود والبيض، وهى تنتهى نهاية أقرب ما تكون إلى الابتهال إلى تحقيق هذه العلاقة - دون أن تحققها فى الواقع! وهو يشبه فى هذا ما فعله ملفن ب. تولسون من قبله فى قصيدة «**متحف هارلم**» (١٩٦٥). فكل منهما يستكشف مجالات العلاقات المتاحة، وكل منهما يوحى بما يمكن تحقيقه وإن لم يتحقق.

أما التحقيق الكامل للترابط والعلاقة الكاملة بشتى صورها فلم

يكتب له أن ينعكس فى أدب الأفروأمريكيين إلا فى أواخر الستينات ، وإن كان اغتيال مالكوم إكس فى عام ١٩٦٥ واغتيال مارتن لوثر كنج فى عام ١٩٦٨ قد أثرا تأثيراً بالغاً على تطور هذا الأدب. وربما يكفى فى هذه العجالة أن نرصد تيارين متناقضين فى هذا الصدد : أولهما تحقيق الترابط ، والثانى إنكاره ومغالبته : أما الأول فيتمثل فى كتابات روبرت هايدن وأليس ووكر ، (الأول شاعر والثانية روائية) . وأما الثانى فيتمثل فى كتابات جين تومر وجيمس بولدوين وإشميل ريد . وإذا شئنا التركيز على الرواية وجدنا أن أليس ووكر من ألمع أسماء هذه المرحلة ، وخصوصًا روايتها المسماة « **خط الزوال** » التى تعتبر بحق من ألمع وأهم روايات الأدب الأمريكى فى هذا القرن- ولكن المجال لا يتسع لتحليلها فى سياق الأحوال الاجتماعية والسياسية وما إليها فى منتصف السبعينات . وأما أهم كتابات منكرى الترابط ومغالبيه ، فهى روايات جين تومر وجيمس بولدوين- وبالتحديد رواية «**لو كان شارع بيل يستطيع الحديث**»- ورواية إشميل ريد المسماة « **الهذر** » . وهكذا نرى أن الوضع الحالى يتميز بالتناقضات تجاه موقف الزنجى من مجتمعه . ويلمح كوك فى نهاية كتابه « **أدب الأفروأمريكيين فى القرن العشرين** » إلى أن ثمة اتجاهات جديدة فى معالجة معنى الترابط والانفصال فى الأدب الأمريكى الحديث الذى يبدعه أهل أمريكا السود- وإن كنت لم أطلع على ما صدر من روايات بعد ١٩٨٤- باستثناء هذه الرواية بطبيعة الحال- **عيد ميلاد جديد**- التى صدرت فى العام الماضى .

هذه هى الصورة العامة لأدب الزنوج فى أمريكا فى إطار

الأدب الأمريكى الحديث بصفة عامة، وسوف أختتمها بالإشارة إلى بعض الدراسات المتخصصة فى أهم الأعمال التى صدرت حتى عام ١٩٨٠ - ففى رأيى أن أهم هذه الدراسات هى التى قام بها بيتر براك فى تحليله لمعنى الاحتجاج ومعنى العالمية واللون الأسود فى الرواية الأفروأمريكية - خاصة إذا وضعت جنباً إلى جنب مع الدراسة التى كتبها فولفجانج كارير عن التكامل والانفصال باعتبارهما القطبين، أو المحورين اللذين يدور حولهما هذا الأدب منذ الحرب العالمية الثانية، وإلى جانب ذلك قدم الأول دراستين قيمتين . الأولى عن رواية «**عازف طبل من نوع مختلف**» للروائى وليام ملفين كيلى (١٩٦٢) والثانية عن رواية «**نشيد سليمان**» (١٩٧٧) للكاتبة تونى موريسون - وعنوان الدراسة «البحث عن الجذور : فكرة البحث والهروب» - كما قدم الثانى دراستين قيمتين أيضًا : أولاهما عن رواية جون أ . وليامز وعنوانها «**أغنية الليل**» (١٩٦١) والثانية عن رواية ألبرت مرى وعنوانها «**جيتار صفارة القطار**» (١٩٧٤) . بل ينبغى أن نذكر بعض الدراسات الهامة مثل دراسة ديبورا شنايدر عن رواية بول مارشال وعنوانها «**فتاة سمراء وأحجار سمراء**» (١٩٥٩) ودراسة كلاوس هانسن عن رواية «**المقابر**» من تأليف وليم دانبى (١٩٦٥) - ودراسة ايرهارد كرويتزر عن رواية «**الشعر المستعار**» للكاتب تشارلز رايت (١٩٦٦) ودراسة مايكل فابر عن رواية «**المذياع الخلفى الأصفر لا يعمل**» للمؤلف إشميل ريد (١٩٦٩) ودراسة كلاوس إنسلن عن رواية «**الحياة الثالثة لجرينج كوبلاند**» من تأليف أليس ووكر (١٩٧٠) ودراسة ألبرت فيرتهايم لرواية أرنست جينز .

وعنوانها « السيرة الذاتية للآنسة جين بتمان » (١٩٧١) واخيرًا دراسة إليزابيث شولتز لرواية «من هي انجلينا ؟ » (١٩٧٥) من تأليف آل ينج وعنوان الدراسة « البحث عن مجال الروح وأبعاد الحرية » .

اين إذن أليكس هيلي في هذا كله ؟ بل أين سواهم من كبار الروائيين ـ مثل كلارنس ماجور أو جون وايدمان أو ليون فورست ـ وغيرهم (جون كيلنز ورونالد فير وناثان هيرد ومارجريت ووكر وسيرس كولتر) ممن كتبوا العديد من الروايات وطبقت شهرتهم الآفاق ؟ الواقع أن الشهرة ليست وحدها دليل التفوق الفني ، وفي اعتقادي أن ثمة عاملاً ، بل عدة عوامل تشترك في إعلاء شأن المؤلف جماهيريًا وليس بأهمها امتيازه الأدبي . ولذلك فعندما نشرت رواية « جذور » عام ١٩٧٦ ، ذاع اسم هيلي وأصبح ظاهرة ، كما نقول هذه الأيام ، خصوصًا بعد أن تحولت إلى مسلسل تليفزيوني شاهده الملايين ، ليس فقط لأنها رواية رائعة (وهي كذلك بأي مقياس) ولكن لأنها مست وترًا حساسًا في نفوس الأمريكيين جميعًا من بيض وسود ، ألا وهو وتر الانتماء الذي ألمحت إليه في بداية المقدمة في إطار ما أسميته بالماضي ، ثم تعرضت له بالتفصيل عند استعراض مراحل تطور أدب الزنوج في أمريكا في إطار ما أسميته بالعزلة والترابط .

لقد صحا الأمريكيون ذات يوم ليكتشفوا أن لديهم صورًا من الماضي متعددة ـ لا صورة واحدة ! وأن الجذور الإفريقية لا تقل أهمية عن الجذور الأوربية ! وإلى جانب ذلك برزت قدرة الكاتب ـ قدرة القصاص ـ على امتلاك أفئدة القراء بدقة بحثه العلمي الذي

يوحى بالثقة ويغرسها فى النفوس، فهو لا يصور خيالاً مهما كانت درجة ارتباطه بالواقع ولكنه يصور الواقع نفسه! ومع ذلك فإننا مازلنا نسمع أصوات بعض النقاد الذين يفصلون بين ماضى المؤلف وماضيهم - واقرأ ما يقوله ناثان سكوت (الابن) فى ختام عرضه لهذه الرواية :

« ورغم نقائص هذه الرواية فهى رائعة حقًا. إذ أن التصميم الحاسم الذى دفع هذا الرجل إلى استعادة ماضيه الشخصى نموذج فريد، وهو من أشد صور الكفاح الدرامى إيحاء وإلهامًا فى الحياة الأدبية فى عصرنا هذا، ولقد ازدادت الأمة ثراءً به بعد أن مضى عليها حين من الدهر أنكرت فيه إنسانيته على المستوى الرسمى ».

ولقد أوردت هذه الفقرة بالتحديد لأشير إلى عبارة « استعادة ماضيه الشخصى » - فهى عبارة تفصل بين ماضى المؤلف وماضى الأمة التى ينتمى إليها، وإن كان الواضح أن سائر النقاد قد أدركوا مغزى ذلك البحث عن الماضى، فهو موضوع يتكرر فى الأدب الحديث وليس مقصورًا على أدب أمة بعينها.

أما رواية « **عيد ميلاد جديد** » فتختلف عن « **جذور** » فى أنها تدور فى نفس طالب جامعى يكتشف عن طريق المثل العليا للدين، ومن خلال تجربة ذاتية فريدة طبيعة الرق المنافية للإنسانية، وعندها يكتشف وسيلة ناجعة للتواؤم مع ذاته بعد أن طالت حربه الباطنة. أى أنها رواية موضوعة فى قالب كلاسيكى مثل روايات القرن التاسع عشر، فهى أيضًا تعتمد على السرد وتمزج الحوار

بالسرد، وتغاير بين وجهات النظر، فلا تحبسنا طول الوقت فى وجهة نظر الشخصية المحورية - شخصية فلتشر راندول - وهى تجنح إلى الفكاهة الهادئة فى أحيان متعددة، ولكنها قبل هذا وذاك رواية مشوقة ما أن يتناولها القارىء حتى ينتهى منها وكأنما يطلب المزيد.

أما البناء فيعتمد ببساطة على عدة رموز دينية واضحة، أهمها رمز الكوكريين. وربما كان من المهم هنا أن أوضح أن هذه الطائفة الدينية تعود بجذورها إلى القرن السابع عشر فى انجلترا، وأصل التسمية يعود إلى كلمة (كويك) أى يرتجف لذكر الله (من إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) وليس لها - للأسف - مرادف بالعربية. وعندما يظهر الإخوة الكوكريون الثلاثة إلى فلتشر يبدون فى هيئة المجوس الثلاثة ويستدعون إلى الذهن صورة الطفل المسيح فى المزود - ومنذ تلك اللحظة يستخدم هيلى رمزية الثنائية - فى كل موقف تقريبًا - وهى رمزية واضحة، فالأبيض والأسود صنوان، وهما يتحركان فى كل مكان لإثبات هذا المعنى الخفى أو للإيحاء به.

ويستخدم المؤلف فى روايته مزيجًا من الرموز الأدبية الشائعة مثل الرحلة إلى الشمال اهتداءً بالنجم القطبى، والإيحاء بالجو النفسى مستعينًا بالطبيعة سواء بالليل أو بالنهار، كما يسخر من صور الممارسة الدينية فى الجنوب من خلال العرض المسرحى لميلاد السيد المسيح فى وقت يشير فيه أهل الجنوب إلى العبيد من السود على أنهم من ممتلكاتهم - ويكفى أن ميليسا آن هارون تقول لفلتشر بكل ثقة إن السود ليسوا من البشر.

وأخيرًا فلن يفوت على القارئ استخدام بعض الأسماء ذات الدلالة في الرواية مثل موسى وهارون ونوح - وكلهم من أنبياء الله - وإطلاق هذه الأسماء على السود والبيض بلا تمييز! وأظن أن الكاتب كان يفعل ذلك واعيًا، ولذلك فضلت تقديم المرادف العربي لهذه الأسماء، إلى جانب الإشارات المباشرة إلى التاريخ الحقيقي لهرب العبيد من الجنوب إلى الشمال فيما يسمى بطريق الهروب السري الذي أصبح يطلق عليه «قطار الهروب السري». وسوف يلحظ القارئ الإشارات إلى هذا التاريخ بوضوح وجلاء، ويكفي أن يعرف مثلاً أن شخصية فريدريك داجلاس شخصية حقيقية، بل إن لدينا كتاباً كتبه داجلاس بنفسه وعنوانه «**تاريخ حياة فريدريك داجلاس - العبد الأمريكي**».

وختامًا أرجو أن يستمتع القارئ بالرواية باعتبارها عملاً أدبياً قبل أن تكون كتاباً في التاريخ، أو دراسة صحفية.

د. محمد عناني

الفصل الأول

فى عصر يوم من أيام شهر مارس عام ١٨٥٥ ، كان الأستاذ س . توماس ريدجلى عميد شئون الطلبة يجلس فى غرفة مكتبه بالكلية - وهى غرفة تنم عن تقشف يعكس عزوفه عن التظاهر وجنوحه إلى الصراحة التى تقترب من الصرامة - وأخذ يفحص طلبًا تقدم به طالب فى السنة الثانية ربعة القوام ذو شعر بنى ، وقف أمامه وقفة احترام رسمى ، كما ينبغى على كل طالب يقف أمام أحد موظفى الكلية . أما اسم الطالب فقد كان فلتشر راندول - وهو فى التاسعة عشرة من عمره ، من ولاية كارولينا الشمالية ، وقد التحق بهذه الكلية فى مدينة برنستون فى ولاية نيوجيرسى التى تقع شمال ولايته . وأما الطلب الذى تقدم به ، فهو الإذن له بالانتقال إلى مسكن آخر من مساكن المدينة الجامعية . ورفع عميد شئون الطلبة بصره من خطاب راندول الذى وضعه فى ملف الطالب المفتوح فى منتصف مكتبه - ولم يكن على المكتب إلا هذا الملف - ثم وجه حديثه إلى الطالب قائلاً :

« إنك تطلب الانتقال إلى مسكن آخر فى المدينة الجامعية وذلك - بكل أسف - فى وقت متأخر من العام الدراسى ، كما أنك تقول فى طلبك إنك تريد الانتقال « لأسباب شخصية » - فهل تتفضل بتفسير هذه الأسباب ؟ »

وأجاب راندول · « إنه موضوع خاص يا سيدى » .

« دعنى أذكرك أننى ـ باعتبارى عميدًا لشئون الطلبة ـ أهتم بمشاكلهم الشخصية بل ومشاكلهم الخصوصية أحيانًا والآن هل تسمح بشرح هذه الأسباب ؟ »

وقال فلتشر راندول : « أعتقد أنك تدرك صعوبة وضعى فى كلية نيوجيرسى باعتبارى من الجنوب . وأنا أواجه فى المسكن الذى أقيم فيه مشاكل كثيرة مع طالب من نيويورك اسمه توم باريت . فهو يتفاخر مع أربعة أو خمسة من رفقائه بأنهم « يكرهون المتمردين » . أرجو ألا تتصور أننى جئت أشكوهم إليك ولكننى أعتقد أننى لابد أن أنتقل إلى مسكن آخر قبل أن يقع ما لا تحمد عقباه » .

وقرر العميد ريدجلى أن يتجاهل العصبيات الطائفية التى فجرت هذا الصراع بين الطلبة ، ورأى أن الموقف لا يحتمل الإفاضة فى موضوع العصبية الجنوبية وما تنصبه من فخاخ يقع فيها الإنسان ، بل ولا يحتمل مناقشة أوهامها وآثارها الاجتماعية ، أو مناقشة الرق ومجافاته للإنسانية (رغم أنه كان يتمنى أن يلقى على مسمع فلتشر أبياتًا للشاعر وردزورث يقول فيها ·

« أفلا يجدر بى أن أرثى
ما صنع الإنسان
بأخيه الإنسان ؟ »

وعلى أى حال فقد كان ذلك الشاب من إفراز مجتمع وسلالة تتشبه بحضارات اليونان وروما القديمة التى اخذت بنظام الرقيق . والواضح أن فلتشر راندول كان بطبيعته انطوائيًا لا من أهل الجنوب المولعين بركوب الخيل والصيد والشراب ، ولم تكن تستهويه صور اللهو والمرح الفظة التى تعتبر جزءًا لا يتجزأ من الحياة الجامعية العادية .

وارتسمت على شفتى العميد ريدجلى شبه ابتسامة وهو يخرج من أعلى درج فى المكتب مظروفًا مستطيلاً أصفر ، يتدلى منه مفتاح ، وقال · «لقد وافقت على انتقالك إلى مسكن آخر يا سيد راندول . وسوف تشغل غرفة مستقلة ـ كما جرت العادة ـ إذ أن والديك قد أوضحا منذ البداية أنهما على استعداد لدفع المبلغ الإضافى حتى لا يشغلك رفيق غرفتك عن دراستك . تفضل ! هذا هو مفتاح غرفتك الجديدة ، وخطاب موافقتى على نقلك » .

وأنعم العميد النظر إلى فلتشر راندول ثم قال : «دعنى أقدم لك هذه النصيحة : لاشك أن امتيازك الدائم فى دراستك جدير بالإعجاب ، وقد فحصت تقاريرك الدراسية فى هذا الملف فرأيت أنك منذ وصولك تحتل مركزًا بين الأوائل . ولكنك تركز على دراستك أكثر مما ينبغى بحيث تتجاهل أشياء أخرى مهمة مثل تكوين الصداقات » ـ وافتر ثغر العميد عن شبه ابتسامة أخرى لراندول قبل أن يضيف : «حاول أن تتذكر يا سيد راندول ـ وسوف ينفعك هذا فى المستقبل ـ ان تغيير مكان الإقامة لا يحل المشاكل فى كل الحالات » .

وصوب العميد ريدجلى نظرة حادة إلى الباب وأضاف .

« تفضل ! »

« شكرًا يا سيدى » .

وأخذ فلتشر راندول يحث خطاه نحو مسكنه القديم وقد شاع فى نفسه ارتياح عظيم لموافقة العميد على نقله ، فلقد ضاق صدره بزميله توم باريت - ذلك المتغطرس الكريه - بطل السباحة وملك الأناقة والتفاخر الذى لا يدع فرصة تفوته دون أن يذكر أن أباه كان من أثرياء رجال البنوك فى نيويورك . وكذلك كان أقران باريت - مثل بيتر استابروك ، وهو سباح أيضًا ، وإدجار سكوت الذى ينتمى إلى أسرة اشتهرت بتجارة ملابس الرجال ، ووليام جينز ابن أحد كبار المحامين - فهم جميعًا يجدون متعة فى السخرية من طلبة الجنوب ومضايقتهم - وخصوصًا فلتشر راندول الطالب الجاد الذى يميل إلى العزلة ويقيم فى غرفة تجاور غرفهم فى المسكن الجامعى . وكانوا يحبون السخرية من لهجة الجنوب التى يتكلم بها وتلطيخ وجوههم بمساحيق سوداء مثل التى تستخدم فى طلاء وجوه العبيد فى رسوم الكاريكاتير ، أو أن ينحنوا أمام زملائهم الجنوبيين فجأة ويهزوا أياديهم يمنة ويسرة مثلما يفعل جامعو القطن من العبيد .

وفى عطلة الصيف الأولى التى قضاها فلتشر راندول فى موطنه واستمرت شهرين كاملين استطاع أن يجد الوقت لتأمل تجارب أول عام قضاه فى الكلية ، وعندما عاد إلى دراسته فى العام التالى كان قد اتخذ قرارًا حاسمًا بأن يفعل أمرين : الأول أن يبقى فى برنستون طوال العطلات الصيفية الثلاث القادمة فلا يعود إلى موطنه إلا فى عطلات عيد الميلاد ، ومن ثم يحصل على

إجازته الجامعية فى ثلاث سنوات فقط . وعندما أعلن ذلك لأبويه - هب والده - وكان مزارعًا ثريًا وعضوًا فى مجلس الشيوخ - وصاح صيحة برلمانية راعدة قائلاً: « والله إنك لمصدر فخر لنا يا بنى ! والله إنك لمصدر فخر لنا ! » أما والدته فقد بكت أول الأمر - كما هو متوقع - ثم جعلت تمسح عيونها بمنديلها طيلة النهار ! أما الأمر الثانى ، فقد اقسم فلتشر أن ينتهز كل فرصة ممكنة للحديث بلهجة جنوبية مبالغ فيها كلما دخل فى مواجهة مع الشماليين .

ولا يعنى هذا أن فلتشر قد وجد من اليسير عليه أن يقيم علاقات طيبة مع زملائه من أهل الجنوب فى الكلية . فقد أثار سخطه فى العام الأول مستوى البذاءة الذى ينحدر إليه طلبة الجنوب عندما يجتمعون للشراب فى قاعة « منزل الجنوب » - وهو مكان اللقاء المفضل لأهل الجنوب ، ويقع على مشارف الحرم الجامعى . ولن ينسى فلتشر أبدًا أن طالبًا أشقر الشعر من ولاية جورجيا اسمه رستى ويفر قد صب على رأسه قدحًا كاملاً من الجعة ، وأخذ يضحك مثل الضبع ويصرخ فى سكره لكل من يسمعه « فى صحة أحد الملاعين الشباب من كارولينا الشمالية ! »

وهو يذكر أيضًا ما فعله « هوس » رانكين - فهو غليظ ذو شعر أشعث ولسان سليط من بلدة صغيرة فى ولاية كنتاكى . كان يشعر لسبب ما أن فلتشر يتحاشاه ، وقد رد على ذلك بأن قبض عليه من الخلف قبضة المصارعين العتاة حتى تخيل فلتشر أنه سيسمع صوت ضلوعه وهى تتحطم !

ولكن أكثر من ضايقه من الجنوبيين كانوا أولئك الذين أخذوا يسخرون منه ويطلقون النكات البذيئة والخارجة عليه ، لأن درجاته العالية تنشر فى نهاية كل فصل دراسى فى قائمة العميد ،

ولأنه يعيش وحيدًا بينما كان كل منهم يشارك طالبًا آخر فى غرفته ويستمتع بالزيارات الصاخبة أكثر من استمتاعه بالدراسة .

وعلى سبيل المثال دخل فلتشر ذات مساء إلى « منزل الجنوب » ومعه عدة كتب - كالعادة - وكراستان وضعها جميعًا على المنضدة وذهب ليحضر قدحًا من الشاى . وعندما عاد لم يجد الكتب . وبدأ يبحث عنها بهدوء أول الأمر إذ أيقن أن اختفاءها « مقلب » سخيف من أحد الزملاء . ولكنه بدأ يغضب عندما انقضت نصف ساعة فى البحث دون طائل . وهنا بدأت الضحكات الساخرة ، وكان فلتشر على وشك الانفجار فى وجوههم عندما صاح طالب ضخم فى حجم الدب - من ولاية فرجينيا - يطلقون عليه لقب « الثور » ببرد - وضرب منضدة قريبة بقبضة يده مزمجرًا « يكفى ذلك ! هيا .. يكفى ذلك ! أعطوا ابن كارولينا الشمالية كتبه ودعوه ينصرف للدراسة ! بل ينبغى على كثير منا أن ينصرفوا للدراسة أيضًا بدلاً من الجلوس هنا واحتساء الجعة ! » وصاح طالب آخر بلهجة سكير « فلتشر ! فخر الجنوب ! » - وبينما اتجه للخروج وقد عصفت به شتى المشاعر كان أحد الطلبة يردد هتافًا مع زملائه بنغمات سكر بينة !

ولم يستغرق انتقال فلتشر راندول إلى غرفته الجديدة ساعة واحدة - قضاها فى جمع أمتعته والانتقال بها عبر المدينة الجامعية ، وسرعان ما استقر فى غرفته فى هدوء . وتفرغ ذلك المساء للانتهاء من الواجب الذى كلفه به أستاذ اللغة الانجليزية ، وهو كتابة مقال عن أحد الموضوعات العامة ترك له حرية اختياره . وفكر أول الأمر فى أن يكتب مقالاً عن الصراع بين ذوى اللون « الرمادى الفضى » و « أحرار الضمير » وهم الأعضاء الذين

يمثلون الشمال فى حزب الأحرار. وكان «أحرار الضمير» ومعظمهم من ولايات نيو انجلاند يعارضون الرق معارضة شديدة، أما أولئك الذين كانوا على استعداد للتعاون مع أحرار «القطن» الجنوبيين فكانوا يعرفون بذوى اللون «الرمادى الفضى» (نسبة إلى القطن). ولكن فلتشر قرر آخر الأمر أن يكتب مقالاً نقدياً لاذعاً عن كتاب «**كوخ العم توم**». من تأليف السيدة هـ. ب. ستو. الذى يكرهه الجنوبيون بشدة. بينما تلقى تلك الرواية كل التكريم والاحتفاء من العديد من النبلاء والسياسيين فى بريطانيا.

وكان منهمكا فى كتابة مسودة الصفحة الرابعة من مقاله الساخر عندما سمع طرقًا خفيفًا على الباب، والساعة تشير إلى العاشرة والنصف. وقال فى نفسه: من عساه يكون الطارق؟ وفى هذه الساعة؟

وفتح الباب فرأى ثلاثة طلبة يبدو أنهم فى نفس العمر وتتشابه ملامح وجوههم إلى حد كبير. وقال أكبرهم وكان يقف فى المنتصف: «سمعنا أنك انتقلت إلى هنا فجئنا لمقابلتك. نحن أصدقاء».

وأحس فلتشر راندول بأن ست عيون قد ركزت بصرها عليه، وسمع ما قالوه له وشعر بأن هؤلاء الشبان الثلاثة يمتازون بصفة خاصة بهم بل إن هدوءهم نفسه كان ذا قوة غير مألوفة.

كان فلتشر يدرك أن عليه أن ينتهى من واجبه الدراسى قبل أن ينام، فقال لهم. «أنا سعيد بلقائكم واسمى فلتشر راندول» ثم أضاف قائلاً: «ولكن علىّ واجبًا لابد ان انتهى منه قبل درس الغد».

واحس بالضيق والعيون الست تتفحصه .

وابتسم أصغر الثلاثة قائلاً : « أعرف ذلك فأنا زميلك فى درس اللغة الانجليزية » .

ونجح فلتشر فى أن يرد ابتسامة الشاب قائلاً : « هذا ما كنت أظنه . أفلا يمكن أن تعودوا جميعًا فى وقت أنسب من هذا ؟ »

وعندما أومأ الثلاثة بالموافقة لم يملك إلا أن يسأل : « ألستم جميعًا أقرباء ؟ »

ورد الأوسط : « نحن إخوة . ونحن من فيلادلفيا ونطلق على أنفسنا اسم « الأصدقاء » . وربما سمعت عن مذهبنا الدينى . نحن كوكريون ، ونود أن نناقشك فى موضوع تختلف فيه آراؤنا عن رأيك » .

واستدار الثلاثة وانطلقوا فى الممر منصرفين بنفس الهدوء الذى أتوا به ، فعاد فلتشر إلى مقاله ، وكان يفقد تركيزه كلما عبرت كلمة « كوكريون » ذهنه ، وحاول قدر الطاقة أن يتذكر ولو أقل القليل عن هذه الطائفة .

نعم . إنها جماعة دينية ، وهم من أشد الناس إيثارًا للسلم ، وقد سمع نكتة تصور تلك الخصيصة تصويرًا فكهًا وهى : دخل أحد اللصوص منزل أحد الكوكريين فى ساعة متأخرة من الليل ، وفى أثناء انهماكه فى جمع المسروقات رأى الكوكرىَّ فجأة واقفًا يرتدى سراويله الداخلية الطويلة ويصوب بندقيته نحوه قائلاً : « أيها الصديق ! إنك تقف فى المكان الذى سأطلق عليه النار ! »

ثم تذكر فلتشر راندول آخر الأمر (وقد عجب من عدم تذكره ذلك فى البداية) أن والده دأب على مهاجمة الكوكريين بسبب

عدائهم الشديد للرق وبخاصة عداؤهم لامتلاك العبيد وبيعهم .

وقرر أنه إذا اكتشف أن الإخوة الكوكريين يريدون مناقشة قضية الرق معه - بينما تملك أسرته العديد من العبيد - فسوف يطلب منهم أن يرحلوا وحسب .

وطوال ذلك الأسبوع تملكت ذاكرة فلتشر نظرات الإخوة الكوكريين وعيونهم تتفحصه عند الباب كأنما تحاول أن تصل إلى قرار ما بشأنه .

وفى درس اللغة الانجليزية التالى حرص فلتشر على الوصول مبكرًا ، ثم تباطأ عند الباب الخلفى حتى وقعت عينه على أصغر الإخوة الكوكريين الذى يشاركه قاعة الدرس فأومأ له وحياه - إذ كان مقعده فى الخلف ، وقال فلتشر فى نفسه إنه ربما تعمد ذلك حتى يتحاشى توجيه الأنظار إليه . فهو لا يذكر أنه سمع ذلك الأخ الأصغر يقول كلمة واحدة فى أثناء الدرس .

وفى عصر أحد أيام الخميس وجد فلتشر ورقة صغيرة تحت الباب تخبره أن الإخوة الكوكريين سوف يعودون لزيارته عصر يوم الجمعة . وقال فى نفسه ربما كان الأخ الأصغر يعلم أنه غير مرتبط بأى دروس عصر يوم الجمعة . وانتظارًا للموعد وجد أن شوقه يزداد إلى معرفة المزيد عن الكوكريين . كانت أحب دروس السنة الثانية إلى قلبه هى دروس التاريخ والجغرافيا وفلسفة الأخلاق ، وكان يعزو ذلك إلى أنه مثل أمه مولع بالفطرة بمعرفة أحوال الشعوب المختلفة ، وينشد الكتب التى تشرح أساليب

حياتهم وسلوكهم فى شتى مواقعهم التاريخية. بل إن أحد الرفوف فى مكتبة منزلهم الريفى غاص بمثل هذه الكتب التى اشترتها والدته أول الأمر - بل اقتنت بعضها قبل أن يولد - وهى لا تفرح بشىء فرحتها بشغفه وحبه لهذه الكتب.

بل إن الطموح الذى أضمره فلتشر فى نفسه منذ طفولته هو أن يجد عندما يكبر مديرًا محنكًا لمزرعتهم الكبيرة، وللأعداد الكبيرة من العبيد الذين لا غنى له عنهم، حتى يتفرغ هو للسياحة - فيركب السفن إلى أوربا أولاً، ثم يستخدم الخيل أو السفن أو العربات، أو حتى يسير على قدميه حتى يزور أى مكان فى العالم يتوق إلى زيارته.

والواقع أن رغبة فلتشر المشبوبة فى معرفة المزيد عن العالم وسكان العالم لم تخب جذوتها فى يوم من الأيام. ولا يعنى ذلك أنه لم يكن يحب كارولينا الشمالية - الولاية المنتجة للقطران كما كانوا يسمونها - بل كان يعشقها وبخاصة مقاطعة «آش» بل وسائر المناطق الجنوبية التى يعتز بها وبأسلوب حياتها الذى يعتمد على المزارع الكبيرة. لم يكن يخامره شك فى ذلك! بل انه جعل يذكر نفسه أنه إذا اجتمع للحديث مع الكوكريين - أو الأصدقاء كما يسمون أنفسهم - فسوف ينبههم منذ البداية - وبوضوح وجلاء - إلى أن أى إساءة، ولو عن طريق التلميح إلى أسلوب الحياة التقليدى فى أراضى الجنوب سوف تضع حدًا للنقاش. ولكنه كان يرجو ألا يحدث ذلك، كما كان يدرك مدى شوقه إلى معرفة الجديد عن هؤلاء الكوكريين - مثلما يتطلع إلى معرفة المزيد عن أهل إيطاليا أو ألمانيا أو اسكتلندة أو اليهود أو اليونانيين.

والواقع أن فلتشر قد سمع أن نسبة كبيرة من المجموعات العرقية الأوربية البيضاء ممثلة بين الطلبة ، كما سمع أن ثمة ناديًا دوليًا للطلبة وأن النادى أحيانًا ما يدعو الجميع للحضور . ووعد نفسه بأن يحضر الاجتماع المفتوح التالى .

واستعدادًا للزيارة الوشيكة من الإخوة ، قضى فلتشر أمسية كاملة فى مكتبة الكلية يقرأ عن الكوكريين . فاكتشف أن الكوكريين الألمان فى (جيرمان تاون) فى ولاية بنسلفانيا كانوا قد أصدروا احتجاجًا رسميًا عام ١٦٨٨ « ضد التعامل فى أجساد الناس ومعاملة البشر معاملة الأبقار » . وفى عام ١٧٧٢ بدأ « الأصدقاء » فى نيو انجلاند يسقطون عضوية العضو الذى لا يحرر العبيد . وفى عام ١٧٧٦ وافقت الاجتماعات السنوية للكوكريين فى فيلادلفيا ونيويورك على اعتبار امتلاك العبيد مخالفة تستوجب الطرد . واكتشف أن الكوكريين هم أكثر الطوائف تقبلاً لمبدأ مناهضة الرق وأشدهم انتصارًا لهذا المبدأ ، كما قرأ عن الكثيرين من الكوكريين الجنوبيين الذين نزحوا للشمال بسبب كراهيتهم للرق ، وأنهم قد أنشأوا مراكز عمل كبيرة لتهريب العبيد إلى الشمال ، وبخاصة فى ولايتى أوهايو وإنديانا (فيما يكنى عنه « بقطار الهروب السرى ») وأن هذه المراكز تكثر فى المناطق الجنوبية الشرقية من بنسلفانيا وشرق إنديانا بسبب كثرة الكوكريين المقيمين فيها .

وتساءل فلتشر فى نفسه عن رد الفعل لدى والدته عندما تعلم أنه قد قابل الكوكريين وتحادث معهم. أما رد الفعل لدى والده فقد كان متوقعًا : إنه سوف يزأر فى غضبة درامية من غضبات

مجلس الشيوخ معارضنا مجرد اجتماع ابنه وورينه- طوعا ودون إكراه- مع أى إنسان يعارض الاعتماد على عرَق العبيد السود ودمائهم فى مزارع الجنوب، وكلما زاد عدد العبيد كان خيرًا وبركة!

وفى عصر يوم الجمعة وصل الإخوة الثلاثة لزيارته وعندما دخلوا الغرفة وقف كل من الأخوين الصغيرين على جانبى فلتشر وأمسك كل منهما بإحدى يديه، ثم شدّا بيديهما على يدى أخيهما الأكبر الذى ابتهل ابتهالاً خافتا وهو «ليت كل الناس تحيا كالإخوة».

واهتز فى أعماقه بحق لهذا الترحيب من جيرانه ثم خطرت له فكرة مفاجئة: ترى هل لعميد شئون الطلبة يد فى هذا الذى يحدث؟ ولكنه أزاح هذه الفكرة عن ذهنه مؤقتًا، على أن يعود إلى النظر فيها فيما بعد.

ورغم أن فلتشر كان مستعدًا خير استعداد للقائهم هذه المرة، فلم يستطع مغالبة إحساسه بأن لدى هؤلاء الإخوة قوة روحية كقوة المتصوفة، إذ بدا أنهم يتحركون كأنما هم شخص واحد، بل ويفكرون كأنهم شخص واحد كانوا يشعون سكينة لا حد لها، بحيث أيقن أنهم لابد ينفرون من العنف، سواء كان لفظيًا أو جسديًا. وفى نفس الوقت أحس بأن الإخوة الكوكريين الثلاثة إذا تعرضوا لتحد شديد ولم يجدوا أمامهم خيارًا فإنهم سيقاومون مقاومة شديدة، بل ويقاتلون حتى الموت.

وراع فلتشر أنه يستطيع استشعار كل هذه الأشياء فى زواره بمجرد انتهائهم من الدعاء، وقبل أن ينبس أحدهم ببنت شفة.

كان فلتشر اول المتحدثين فقال إنه يحس أن الأمانة تقتضى إخبارهم أنه مسرور بلقائهم والحديث معهم ومعرفة المزيد عن طائفتهم، إد لم يكن يحيط إلا بالقليل عنهم فى ولاية كارولينا الشمالية حيث نشأ وترعرع. وكاد يفضى بتحذيره لهم ألا ينتقدوا الجنوب- موطنه- ولكنه سكت.

وقام الأخ الأصغر- زميل فلتشر فى دروس اللغة الانجليزية- بتقديم نفسه أولاً، ثم قدم أخويه. «اسمى أندرو إليس، واسم أخى هذا بول، وهذا نوح». ثم أضاف أثناء مصافحة فلتشر له أنه قد ذكر لإخوته ولأسرته فى فيلادلفيا- فى غضون العام المنصرم عندما كانا معًا بالسنة الأولى- أن زميله الجنوبى يتميز بالجد والتفوق، وأن الكوكريين وأسراتهم يكنون أعمق احترام للجد والتفوق.

وقال الأخ الأوسط إنهم من فيلادلفيا، وأنهم يعتزون بأن الكوكريين مسئولون إلى حد كبير عن تسمية هذه المدينة بهذا الاسم الذى يعنى «مدينة الحب الأخوى».

وأضاف أكبر الإخوة الكوكريين قائلاً بصوت خفيض: «لا تعدل الكوكريين فئة دينية أخرى فى البلاد فى دفاعها عن المبادىء الأساسية للحرية والمساواة والكرامة الإنسانية».

وأدرك فلتشر الاتجاه الذى تسير فيه المناقشة وعرف مرماها، ومن ثم قرر الإفصاح عن رأيه فى ذلك الموضوع «المثير» بطريقة لا تمثل أى تحد للإخوة، فقال إنه قرأ وسمع عن مناهضة طائفة الكوكريين لامتلاك وتشغيل العبيد السود. ثم أضاف قائلاً: «وهكذا أرجو أن تدركوا سبب اختلافى معكم. إذ

أن والدى ، كشأن والده من قبله ، يمتلك ويدير مزرعة كبرى هى الرابعة من حيث الحجم فى ولاية كارولينا الشمالية » . وتوقف فلتشر قبل أن يقول · « ولدينا مائة عبد وثلاثة آلاف فدان ، ربما ورثتها جميعًا يومًا ما » .

وساد الصمت التام هنيهة ، بدا أن الإخوة الكوكريين يتأملون فيها ما قاله فلتشر ، ثم قال الأخ الأكبر : « الناس مختلفون ، والآراء بطبيعتها لا يمكن أن تتفق » . وزفر فلتشر زفرة ارتياح خافتة ، فالظاهر أن الكوكريين لن يشنوا هجومًا صريحًا على امتلاك أسرته للعبيد .

وفى نفس الوقت شعر فلتشر ـ نتيجة لكل ما قرأ وسمع ـ أن الكوكريين ينتظرون الفرصة السانحة وحسب ، وأن الأمر لن يتوقف عن هذا الحد .

ولكن فلتشر دهش لمرور الساعة التالية دون إثارة قضية ما تؤدى إلى المواجهة ، بينما ظل الأربعة جالسين ـ إما على سريره أو على الكرسيين الخشبيين فى غرفته .

كان الإخوة يجيبون على أسئلته ويخبرونه بالمزيد عن أنفسهم وعن أسرتهم . كان كل منهم يكبر الآخر بعام واحد ، أما الأكبر فقال إنه قرر أن يحصل على درجة جامعية فى إدارة الأعمال ، ثم يشارك والده فى إدارة شركة الخضراوات وانتاج الفواكه ـ وهى شركة كبيرة تمتلكها الأسرة ، فى مدينة فيلادلفيا . وقال الأخوان إنهما قد يشتركان فى هذا العمل أيضًا ولكن آراءهما لم تستقر بعد .

وفى أثناء استماعه إليهم شعر فلتشر أنه كان محقًا فى اتباع

احساسه الداخلى الذى جعله يقابل أشخاصًا لا يطيق والده مجرد النظر إليهم ، ولاشك أنه لو علم لحذره منهم . وأدرك أن شخصيته تنمو نتيجة لاتساع نطاق تجاربه وخبراته - وهو جهد كان أستاذ فلسفة الأخلاق - الدكتور س . اريك لنكون - ينصحه ببذله من وقت لآخر وهو يحاضرهم فى هذا الموضوع صباح كل ثلاثاء .

وطاف بخلده خاطر سره سرورًا دفينًا - وهو : ماذا يقول عميد شئون الطلبة عنه إذا رآه جالسًا هنا يتحدث هذه الأحاديث الممتعة فى صوت خفيض ، وبهدوء مع أصدقائه الجدد من الكوكريين ؟

وعجب فلتشر فى نفسه حين اكتشف أنه يعتبر أن الإخوة الثلاثة كوكريون وحسب - لا أبناء أسرة « إليس » التى ينتمون إليها فى الواقع ! وبينما كان « الإخوة الكوكريون » يستعدون للرحيل التفت الأخ الأكبر وقال كأنما خطرت له فكرة مفاجئة : « صديقنا فلتشر ! إنك تعيش بعيدًا كل البعد عن كارولينا الشمالية ، بينما نحن على مقربة من موطننا مدينة فيلادلفيا . وطالما ليس لديك محاضرات بعد الظهر يوم الجمعة فلماذا لا تنزل ضيفًا علينا أثناء استعدادنا لعطلة آخر الأسبوع فى المنزل ؟ إننا نستمتع بصحبتك ، وأنت لم تسبق لك زيارة فيلادلفيا ، وسوف تسعد أسرتنا ونسعد نحن بزيارتك » .

ورد فلتشر على الفور : « بكل سرور ! لسوف يسرنى هذا ! » واهتز فلتشر لهذه اللفتة مثلما فوجىء بها . وكلما فكر فى الأمر ازدادت بهجته وسروره ! فلأول مرة فى حياته - وقد بلغ الآن التاسعة عشرة - يقرر وحده القيام بمثل هذه المغامرة !

ولم يتحدث الأخ عن أى تفاصيل خاصة بالسفر ، ولكن فلتشر

كان يعلم أن شركة فيلادلفيا وردنج للسكك الحديدية لها خط حديدى منتظم يصل إلى فيلادلفيا . ولكنه قال فى نفسه إنه على استعداد لأن يراهن بكل ما يملك على أن الإخوة - باعتبارهم كوكريين حتى النخاع - لن يركبوا قطارًا جديدًا حديثًا ينفث البخار بل سوف يسافرون بوسائلهم المعتادة فى الذهاب والعودة ، إما بعربة من العربات العامة التى تجرها الخيول ، أو بعربة يستأجرونها خصيصًا لهذا الغرض . وكان قد سمع أحدهم يقول إن الرحلة بالعربة تستغرق عشر ساعات تقريبًا من برنستون إلى فيلادلفيا - مع التوقف مرة واحدة لتغيير الخيول .

ومع أن الإخوة لم يذكروا شيئًا عن مكان إقامته أثناء عطلة آخر الأسبوع التى دعوه إليها ، فإنه كان متأكدًا أنه سيحل ضيفًا عليهم فى المنزل .

وسره أن والدته قد أصرت على شرائه حلته الزرقاء الجديدة المصنوعة من الصوف الجميل ، وقميصه القطنى الأبيض ، ورباط عنقه المفتول ، حتى يكتمل الطقم للمناسبات الرسمية . ولكنه تردد وقال فى نفسه : نعم لا بأس بالحلة ولكن الملبس البسيط ربما كان أنسب لأسلوب الحياة البسيط الذى يمارسه الكوكريون .

ترى أى نوع من الطعام يتناوله « الأصدقاء الكوكريون » فى منزلهم ؟ واستمر فلتشر يتساءل فى نفسه : لربما لم يسمعوا مطلقًا عن بليلة الذرة والشوفان ، وعن صلصة السمك الفاخرة ! ولكنه تذكر أنه قرأ عن الكثيرين من الكوكريين المزارعين ، بل عرف أن منهم من يمتلك مزارع فى الجنوب ، وأنهم يزرعونها إما بأنفسهم أو بمساعدة العمال الزارعيين المأجورين ، إذ يرفضون امتلاك أى عبيد . وكان قد قرأ فى الكتيبات والدوريات الموجودة

فى مكتبة الكلية أنه منذ زمن طويل - منذ أواخر القرن السابع عشر - والكوكريون ينشئون مراكز مهمة (أصبحت تسمى مراكز «قطار الهروب السرى») هدفها مساعدة العبيد الذين يعملون فى مزارع الجنوب على الهرب إلى الشمال - وإلى كندا بصفة خاصة .

وقد أغضبه ذلك الذى قرأه غضبًا شديدًا حتى أنه صفق الكتاب بشدة على منضدة المكتبة ، وكان يعتقد أن تواطؤ الرجال البيض فى سرقة الممتلكات السوداء لسواهم من البيض جريمة تصل إلى حد الخيانة ، خصوصًا وأن أسعار العبيد باهظة ، بل إن أسعار النساء القادرات على العمل والأطفال قد تساوت تقريبًا مع أسعار العبيد السود .

ومع مرور الأيام واقتراب الموعد ازداد شوق فلتشر وتطلعه إلى الرحلة المرتقبة يوم الجمعة . ولسبب لا يدريه ، قرر أنه من المستحسن ألا يكتب لوالديه عن المغامرة التى اعتزم القيام بها حتى ينتهى منها .

الفصل الثانى

كان الترقب قد بلغ مبلغه بفلتشر ظهر يوم الجمعة الموعود عندما وصل أصغر الإخوة الكوكريين إلى باب غرفته المفتوح، وابتسم له قائلاً: «عربتنا فى الانتظار إن كنت مستعدًا».

كانوا قد استأجروا عربة - وقد صدق ظنه فى هذا - تتسع لأربعة ركاب ذات غطاء من المشمع الذى لا ينفذ منه ماء المطر، وكان يجرها حصانان قويان جميلان. وكان نوح، الأخ الأكبر، يجلس فى مقعد السائق والغطاء مطوى فى ذلك الجو الصحو.

وعندما انطلقت المركبة خلال الشوارع الخلابة فى مدينة برنستون أفضى نوح إلى فلتشر بالخطة الموضوعة للرحلة. قال إنهم سوف يسيرون بسرعة معقولة خمس ساعات أو ست ساعات حتى وقت الغروب تقريباً، ثم يتوقفون لتناول العشاء، ويقضون الليل فى فندق يحبونه، ثم يستيقظون مبكرًا يوم السبت ويركبون العربة لمسافة أقصر من الأولى بحيث يدخلون مدينة فيلادلفيا فى أفضل وقت للاستمتاع بمناظرها.

وقال زميل فلتشر فى الدراسة. «مع أننا ولدنا ونشأنا فى تلك المدينة، فإننا نشتاق دائمًا للعودة إليها».

ورغم عشرات الأسئلة التى تلح على ذهن فلتشر فقد فضل الاستماع إلى نصيحة زملائه والاستمتاع بمناظر الطريق فى

صمت . ووجد نفسه بصورة تلقائية يقارن بين الريف فى مقاطعة «آش» فى كارولينا الشمالية ، وبين المناظر المماثلة التى يشاهدها الآن والعربة تمر خلال ولاية نيوجيرسى على مدى ساعات طويلة وتدخل ولاية بنسلفانيا . وراع فلتشر كيف تتبدى الطبيعة التى خلقها الله فى كل مكان يذهب المرء إليه ، فى النباتات والحيوانات والأرض والصخور . وقال فى نفسه : لقد خلق الله جميع الناس فى المدن والبلدان الصغيرة والريف .

كانت الشمس قد قاربت المغيب عندما أوقف نوح العربة ، وهبط الجميع منها أمام فندق يتكون من طابقين . كانت غرف الضيوف فى الطابق الأعلى ، كما اتضح لفلتشر من نوافذه وستائرها . ولمح أيضًا نحو ست غرف إضافية صغيرة لا تتسع الواحدة لأكثر من شخص واحد فى الخلف .

وخرج الجميع من العربة حيث برز لهم رجل هرم فاحم السواد فى رأسه شعر قليل وخطه الشيب . وتبادل كلمات معدودة مع نوح ، ثم أمسك بلجام الحصانين وقادهما إلى الاسطبل حيث يقدم لهما الطعام ويرقدان طول الليل .

وعندما دخلوا الفندق ، رحب صاحبه وزوجته بالإخوة الثلاثة ، وأشرقت على وجهيهما ابتسامة الترحاب بفلتشر وصافحاه بشدة عندما عرّفهما الإخوة به .

وحددت لهم غرفهم حتى يغتسلوا فيها قبل تناول الطعام ، وقد سر فلتشر لمشاركته زميل دراسته غرفته . وقال فى نفسه إنه يود

أن يستمتع بتلك الصحبة عندما يعود إلى مسكنه الجامعى فى برنستون

وقدم الزوجان العشاء للضيوف بمساعدة ابنتهما ـ وكانت ممتلئة القوام لا تقل عن أبويها هشاشة وبشاشة . وبعد أن قرأ نوح دعاء المائدة تناول الجميع الطعام . وأحس فلتشر بأنه تناول اشهى وجبة منذ أن فارق منزله وجلس لآخر مرة إلى المائدة الضخمة فى منزل الأسرة الكبير ، يلتهم اللذائذ التى أعدتها الطباخة هاتى ـ وهى أَمَة عجوز ـ بمساعدة الفتاة ماندى . كانت هاتى السوداء العجوز خادمة للأسرة ومربية للأطفال أول الأمر ، ثم أصبحت طاهية وفلتشر مايزال صغيرًا . كانت قد تولت تربية والده من قبله ، وقد أرضعته مثلما أرضعت والده . وكانت تقول للناس إن الله قد أعطاه عناد أبيه وطبعه الساخن ، وقلب أمه وحنانها . وابتسم فلتشر فى نفسه عندما تذكر كيف كانت هاتى العجوز السوداء تتظاهر بأنها تتلفت حولها ، كأنها تخاف أن يلمحها أحد ، وهى تقدم له ملء ملعقة أو ملعقتين من لذائذ ما تطهو مباشرة من أوانى المطبخ الحديدية السوداء ! وتذكر كيف كان ينفخ بشدة على كل ملعقة حتى تبرد ليتذوقها . وكانت عملية « التذوق » الأولى هذه تساعده على اختيار الأصناف التى يركز عليها عند تقديم الأطباق الكبيرة الحافلة ـ وهى ساخنة يتصاعد منها البخار ـ فى غرفة الطعام بالمنزل . وكان العبيد دائمًا يفضلون تسميته بالبيت الكبير ـ جرياً على التقاليد القديمة .

ولا يذكر فلتشر أنه أقبل على الطعام بالشهية التى أحسها وهو يجلس إلى هذه المائدة المستطيلة فى الفندق ، ونادرًا ما ملأ

معدته مثلما فعل اليوم - حتى ولا فى منزل أسرته. كانت جميع الأصناف رائعة: اللحم البقرى المسلوق، وشرائح الخنزير المشوى، والدجاج وإلى جانبه قطع الفطير، والخضراوات السبع التى يختار منها ما يشاء، بل والحلوى المصنوعة من الخوخ.

وأحس فى الحقيقة بالحرج بعد هذه الوجبة فاستأذن وصعد إلى الطابق العلوى واندس فى فراشه، وعندما وصل شريكه فى الغرفة كان يغط فى نوم عميق.

ورغم تنوع الطعام وكثرته على مائدة الإفطار، فإنه لم يأكل كثيرًا. وبينما هم يستعدون للرحيل جاءت قائمة الحساب فوجد أن نصيبه دولاران وعشرون سنتا مقابل الطعام والمبيت، وعندما خرجوا وجد أن عليه أن يدفع خمسين سنتا أخرى للرجل الأسود العجوز مقابل العناية بالحصانين: كان جلدهما يلمع بعد الاستحمام وتمشيط الشعر. وأحس فلتشر بنوبة كرم مفاجئة، فأخرج من جيبه قطعة مالية من فئة العشرة بنسات وألقاها فى الهواء فى قوس كبير تجاه الرجل الأسود العجوز الذى التقطها بمهارة وافتر فمه عن النواجذ، وانحنى فى امتنان مرددًا: «شكرًا سيدى شكرًا! هذا عظيم!»

كان صباح السبت مشرقًا صحوًا مما زاد من جمال مناظر الطريق عندما انطلقت العربة لاستكمال مسيرتها نحو مدينة فيلادلفيا.

وعلى مشارف المدينة أحس فلتشر أنه رغم كل ما قرأه عن هذه المدينة الكبرى، فإنه لم يتهيأ بالدرجة الكافية لهذه اللحظة.

كان تأثيرها عليه بالغًا وقد أصبحت حقيقة مجسدة أمام عينيه . وبينما انتظم الحصانان فى الدق بحوافرهما على الأرض ، فدارت عجلات العربة فى يسر ، أخذ فلتشر يتأمل البيوت الكثيرة المتلاصقة ، التى راعته ، إذ لاشك أن بها أعدادًا كبيرة من الناس يعيشون متجاورين ، أكثر مما يمكن تصوره فى منطقة المزرعة كلها فى مقاطعة « آش » بولاية كارولينا الشمالية . واعتدل فلتشر فى جلسته على مقعد العربة ، وأقسم قسمًا مفاجئًا أن يحاول - مهما كان المستقبل الذى ينتظره - أن يزور مدينة نيويورك ، المدينة الأسطورية ، ومدينة بوسطن وغيرهما من المدن ، وخصوصًا تلك التى لعبت أدوارًا تاريخية حاسمة فى المراحل الأولى من عمر الولايات المتحدة . كما قرر أن يزور مدينة نورفوك - فى الجنوب - الشهيرة بشاطئها الجميل ، وكان قد قرأ أنه فى حجم شاطىء فيلادلفيا ، وإن كان أقل ازدحامًا منه .

وتطلع فلتشر إلى السائرين فى كل اتجاه . ودلته ملامح الكثير من وجوههم ، وبعض أزيائهم على أنهم ينتمون إلى بلدان مختلفة ، وتمنى لو استطاع أن يسأل كل واحد منهم عن موطنه الأصلى .

ولكن ما صدمه حقًا كان عُدد السود الذين يسيرون فى الشارع ، وخصوصًا تبخترهم الوقح وحركاتهم المميزة ! كان فلتشر قد قرأ فيما قرأ أن فيلادلفيا مدينة معظم سكانها من السود الأحرار ، ولكن رؤيتهم رأى العين تجربة فريدة ، كتب عليه أن يعود إليها فيما بعد . وبدأت بعض الأبنية الضخمة تلوح على البعد - وأدرك فلتشر أنها أكبر من أن تصدق . وقال نوح وهو

يرخى لجام الحصانين . « عندما نتوغل فى المناطق التجارية نود أن نعرفك ببعض أصدقائنا » ، وأومأ فلتشر موافقًا بحماس .

كان فلتشر يتصور أنه سيقابل المزيد من الكوكريين - أو « الأصدقاء » مثل مضيفيه ، ولكن نوحًا أوقف العربة أول مرة لتحية رجل يدعى السيد دستيتو - وهو إيطالى فى الخمسينات ، صاحب متجر علّق عليه لافتة تقول : « سروج وألجمة جميلة » . وتواثب الإيطالى حول العربة وهو يصافح راكبيها بحماس صائحًا : « أصدقائى الأعزاء ! كيف حال الأسرة ؟ » وعرف فلتشر فيما بعد أن ذلك الرجل كان قد التقى مع والد الإخوة الكوكريين لأول مرة على ظهر الباخرة التى أقلتهم جميعًا عند هجرتهم من أوربا إلى فيلادلفيا ، ثم وجد كل واحد عملاً يناسبه . أما السيد إليس الكوكرى فقد عمل ببيع الخضراوات على عربة يد ، وأما السيد دستيتو فقد اختار صناعة الجلود المحببة لدى كل أبناء إيطاليا . وقد أصاب كل منهما قدرًا كبيرًا من النجاح على مر السنين ، واستمرت الصلات الوثيقة بين أسرتيهما ، بينما اتجه الابن الوحيد للسيد دستيتو إلى الدراسة فى كلية ييل .

واستمرت العربة فى سيرها المتئد على الشوارع المرصوفة بقطع البازلت المربعة ، ونوح يوقف الحصانين من وقت لآخر حتى يقدم فلتشر الذى بهرته التجربة إلى معارفه : تاجر هولندى يبيع فى بقالته خمسًا وعشرين نوعًا من الجبن على الأقل ، وجزار ألمانى يعرض فى فاترينة الدكان أنواعًا من السجق والنقانق لا يتصور وجودها جميع مربى الأبقار والخنازير فى ولاية كارولينا الشمالية برمتها !

وعندما دخلت العربة شارعًا آخر أبطأ نوح من سير الحصانين، وشعر فلتشر أن مضيفيه قد قل حديثهم كأن شيئًا جديدًا سوف يقع. وبالفعل توقفت العربة أمام مبنى ضخم عريض علقت على واجهته لافتة كبيرة تقول «فورتاس- لصناعة أشرعة السفن».

وقال نوح وهو يهبط من العربة، وقبل أن يختفى داخل المبنى: «أود أن أعرّفك برجل من أنجح رجال فيلادلفيا». وتوتر فلتشر عندما رأى خليطًا من البيض والسود يدخلون ويخرجون من المدخل الأمامى الواسع، وقد ارتدى كل منهم أردية عمل بيضاء موحدة، وكان واضحاً أن الجميع يعملون معاً على قدم المساواة.

وعاد نوح، ومعه رجل أسود يسير إلى جانبه ويتحادث معه مبتسمًا. «هذا يا سيد راندول هو السيد فورتاس- صديق الأسرة، وأمهر صناع أشرعة السفن فى المدينة، ومن أنجح رجال الأعمال فى هذه البلدة». وكاد فلتشر أن ينهار كأنما أصابه طلق نارى، وأحس بوجهه يحتقن وبحرارة تسرى فيه أثناء مصافحة الرجل الأسود له. هل يظن أنه مساوٍ له؟! وقال فورتاس: «تشرفنا يا سيدى».ولم يستطع فلتشر أن يرد عليه، إذ كان يدرك أن الإخوة الثلاثة الذين استضافوه قد رأوا وجهه يتحول إلى اللون القرمزى. ولكن الله لطف إذ أسرع رجل أسود نحيل يرتدى نفس رداء العمل خارجًا من باب المبنى، وقال إن صاحب العمل مطلوب على وجه السرعة بالداخل.

وانطلقت العربة فى سيرها بينما جلس الإخوة الكوكريون

صامتين . وشعر فلتشر بأن يده اليمنى قد تلوثت إلى الأبد ، فدسها بصورة لا إرادية فى أعماق جيب سرواله الأيمن . كان يدرك أن الإخوة قد رأوه يفعل ذلك فاستولت عليه مشاعر مختلطة من الحرج والغضب ، حتى لقد خطر له أن يقفز خارجًا من العربة إلى الطريق المرصوف بصخور البازلت الصغيرة ، ثم يعود أدراجه إلى الكلية - بل وأن يجمع كتبه وملابسه ويستقر فى مقاطعة « آش » فى كارولينا الشمالية حيث لا يمكن لمثل هذه الإهانة أن تقع .

كان يشعر أن عيون الكوكريين الست قد ركزت بصرها عليه الآن لكنه لم يكترث . فهم يعلمون أنه قد ولد فى مزرعة جنوبية تزخر بالعبيد ، وأنه نشأ وترعرع هناك ، وينبغى أن يدركوا رد فعله إزاء ذلك الأسود الدعىّ . لا بأس - بطبيعة الحال - من احتضان السود المقيمين فى المنزل ، ولكن مكابدة هذه الألفة من جانب رجل أسود غريب أمر لا يطاق! وتمنى فلتشر فى أعماقه ألا يكونوا قد اعتزموا تعريفه برجل آخر من هؤلاء حتى ولو كان حاكم بنسلفانيا نفسه .

ولكن عندما دلفت العربة إلى الممر الذى يؤدى إلى منزل الأسرة الكبير الجذاب ، وجد فلتشر نفسه مضطرًا إلى الاستسلام للعذوبة والرقة اللتين أبداهما الأب والأم ، بل وأبدتهما ابنتهما الصغرى إميلى - ذات الشعر المجموع فى خصلة واحدة كذيل الحصان - وكانت فى الحادية عشرة من عمرها .

كان الجميع سعداء بالتئام شمل الأسرة ، وكانوا يعتبرون

صديق الإخوة الجنوبى ضيفًا غير متوقع. وأحس فلتشر أن السيدة إديث إليس تشبه والدته فى الواقع- فى هيئة الجسم وحركاتها المميزة، وعندما قال لها ذلك دون تردد اندفعت دون تردد هى الأخرى فاحتضنته قائلة. «وها انذا أتبناك يا فلتشر! فأنت الآن آخر أبنائى!»

ولم يكن السيد يوجين إليس أقل منها ترحابًا ورقة، إذ أخذه إلى غرفته حتى يغتسل بسرعة ويغير ملابسه، ثم قال. «أريد أنا والأولاد أن نصحبك فى العربة بعد الغداء فى جولة بالمدينة حتى تستمتع بها! نريدك أن تحبها حبًا يجبرك على العودة إليها!»

وأجاب فلتشر: «ولسوف يسرنى ذلك يا سيدى!»

وركب الجميع عربة أخرى تمتلكها الأسرة وتتسع لستة ركاب. وتولى الأخ الأكبر قيادتها أيضًا وأجلس فلتشر إلى جواره فى المقعد الأمامى حتى يرى بوضوح ما يمرون به، بينما تولى الأب السيد إليس الشرح والتعليق من المقعد الخلفى وراء فلتشر مباشرة.

وكانت البداية مهيبة إذ خرج الجميع من العربة عندما وصلوا إلى قاعة الاستقلال. وتطلع فلتشر فى دهشة وعجب إلى المبنى الحجرى الرمادى التاريخى حيث اجتمع واضعو الدستور شهوراً حتى يصلوا إلى صيغة يرضاها الجميع لتكون دستور الولايات المتحدة الأمريكية.

وأمام عينيه كان يتدلى جرس الحرية الأشهر الذى كثيراً ما

دق ليعلن رسالته ـ رسالة الحرية والديموقراطية ! وحدق فلتشر طويلاً فى الشرح التاريخى فى ذلك الجرس !

كان يسمع ويرى فى كل مكان البائعين الجوالين وهم ينادون على سلعهم المختلفة التى تتباين تبايناً مذهلاً . وأعرب المرة بعد المرة عن دهشته لرؤية أشخاص يمثلون قوميات مختلفة متعددة . وقال الأب : « إن سكان المدينة من المهاجرين يزدادون باطراد هذه الأيام ـ وبخاصة من الألمان والفرنسيين البروتستانت » .

وتعمد فلتشر ألا يعلق على عشرات السود الذين رآهم يسيرون فى الشوارع بثقة ، وقد رفعوا رؤوسهم ، كأنما يعتبرون أنفسهم مساوين للبيض . وطاف بخلده كيف يعلمون السود فى مزارع الجنوب منذ طفولتهم ألا يتخطوا حدودهم ، وأن يلزموا مواقعهم ـ وإلا حل بهم ما لا تحمد عقباه .

وكأنما كان السيد إليس قادراً على قراءة أفكار فلتشر ، إذ توجه إليه بالحديث قائلاً : ندرك جميعاً مدى الاختلاف بين الأوضاع هنا ولديكم فى الجنوب . إذ ألغى الرق فى فيلادلفيا عام ١٧٧٠ ولذلك فإن معظم من تراهم من السود أحرار ، ولو أن عدد من لايزالون عبيداً أكبر مما ينبغى ـ بكل أسف . ولكن الكثيرين ذوو أعمال مزدهرة ـ مثل السيد فورتاس صديقنا صانع الأشرعة . فهم يعملون بالنجارة وحرف البناء المختلفة من صنع الطوب وتغطيته بالملاط وطلاء المنازل ، وكثيرون يمتلكون المطاعم بصفة خاصة . والواقع أن أكبر وأنشط مطعم فى فيلادلفيا يمتلكه توماس دورسى الذى كان عبداً ثم هرب إلى هنا » . وتوقف مستر إليس قبل أن يضيف : « وثم سبب آخر وراء تقدير مدينتنا للسود ،

و أن معظم السود لم يهربوا أثناء وباء الحمى الصفراء بل
ا فى المدينة للعناية بالمرضى ورعايتهم » .

ولم يعلق فلتشر ، وقال فى نفسه إنه مهما كان الأمر فلن يضع نفسه فى موضع حرج من جديد : كان عليه وحسب أن يحترم الصفتين اللتين اتسم بهما الكوكريون وهما الإخلاص والصراحة . وسرعان ما طرق السيد إليس موضوعاً آخر ـ إذ سأل فلتشر :

« أتحب أن تزور الشاطىء حيث ترسو السفن القادمة ؟ »

وصاح فلتشر : « بكل تأكيد ! »

واستمرت العربة فى سيرها نصف ساعة ، ثم طالع عينى فلتشر مشهد لا يكاد يصدق : أحواض السفن والمراسى الممتدة فى البحر وأنواع لا حصر لها من السفن الشراعية ، إما مربوطة فى مرافئها أو راسية خارج الميناء ، وكانت من الكثرة بحيث بدت سواريها الكثيفة ظلالاً متشابكة فى الفضاء ، كأنها غصون غابة عارية فى فصل الشتاء .

وقال السيد إليس : «كم كنت أودكَ أن ترى إحدى سفن المهاجرين الضخمة وركابها ينزلون منها . إنه مشهد لا ينمحى من الذاكرة . ولكن يبدو أننا وصلنا فى موعد غير مناسب».كانت سفن المهاجرين الكبيرة راسية فى هدوء ، ولم يكن يدب على ظهرها نشاط من أى نوع ، والواضح أنها سرعان ما تعود إلى أوربا . وتناهت إلى سمعه أصوات اللغات المختلفة التى يتكلمها البحارة الذين يتحركون فى كل مكان ، أو يقفون فى حلقات يتناقشون ، أو يدخلون ويخرجون من عشرات المحال التجارية

على الشاطىء، من كبار محلات مستلزمات السفن إلى أحقر المواخير والحانات الصغيرة حيث تتسكع أحياناً بعض المتبرجات ويتباهين ببضاعتهن أمامها.

وعندما ابتعدوا عن الميناء قاد نوح العربة حتى اقترب إلى حد ما من إحدى المركبات الجديدة التى تسير بالبخار فى المدينة وسار بحذائها. وقال السيد إليس: «من السهل قيادتها مثل العربات التى تجرها الخيل، ولكنها- كما ترى- أسرع!». وأضاف أن العلماء قد اكتشفوا منذ عهد قريب أن بنسلفانيا مصدر لنوع جديد من الوقود اسمه البترول، وهو وقود خفيف ونظيف ورائع إذا استخدم فى مواقد الطهى.

وكانت العربة ماضية فى طريقها عندما التفت نوح إلى فلتشر، وقال له: «لاشك انك تتوقع زيارة المكان الذى يصلى فيه الكوكريون؟» وأومأ فلتشر بابتسامة. ولم تمض هنيهة حتى خرج الجميع من العربة مرة ثانية وساروا أمام المبنى الشهير واسمه مكان لقاء الأصدقاء».

وبعد قليل وضع السيد إليس يده على ذراع فلتشر برفق وانتحى به جانباً ليحادثه على انفراد: «أدرك أن أبنائى لايودون أن يطلبوا منك هذا الطلب بعد مقابلتك مع السيد فورتاس- ولكننى أتوجه أنا به إليك: أتحب أن تصحبنا إلى مكان نغشاه أحياناً يوم السبت؟ وأقول لك مقدماً إنك سوف تشهد الجنسين الأبيض والأسود يعملان معا فى سبيل قضية واحدة،وربما ساعد هذا على توسيع نطاق تجربتك حتى ولو كنت تعترض عليه. وأعدك أننا لن نطلب منك مقابلة أى إنسان».

وصرخت روح فلتشر فى أعماقه ترفض ذلك الطلب، ولكن الصراحة الكوكرية البسيطة المباشرة التى اتسم بها كلام السيد إليس كانت مثل قوة هادئة متئدة جعلت من المحال عليه أن يرفضه. وأجبر فلتشر نفسه على الإيماء بالقبول ضد إرادته. ووجد نفسه محرجاً للمرة الثانية، وأحس بالغضب لأنه قبل دعوة الإخوة لزيارتهم فى المنزل، وقرر أنه عندما يعود إلى الكلية فسوف يقطع علاقته نهائياً بهم. وفى غضبه تمسك بالعهد الذى قطعه والدهم على نفسه بألا يطلب منه مقابلة أحد، إذ لم يكن يفهم على الإطلاق كيف يفكر أحد أو يتكلم عن السود كأنهم لا يختلفون عن البيض.

وتوقفت العربة فرأى فلتشر أمامه حشداً متوسط العدد تبلغ نسبة السود إلى البيض فيه واحداً إلى ثلاثة، وكان الجميع يتحركون ويتقدمون سعياً وراء أماكن وقوف أفضل أمام خيمة مغطاة صغيرة بنية اللون. وعندما خرجوا من العربة تقدم منهم غلام أبيض نحيل- يبدو بوضوح أنه مهاجر أوربى- فسار معهم إلى حيث وقفت المزيد من الخيول والعربات، والعربات الصغيرة خلف الحاجز الذى تربط فيه.

وعندما اقتربوا أغلق فلتشر عينيه للحظة عابرة إذ لمح على منصة الخيمة أربعة رجال- اثنين من البيض واثنين من السود- يجلسون على مقاعد من النوع الذى يطوى وينقل، وقد ارتدى كل منهم حلة داكنة وقميصاً أبيض ورباط عنق.

وفجأة نهض رجل من البيض وبدأ يصيح بصوت عال مناشداً الجمهور: «لابد من المزيد من العون لإخواننا وأخواتنا السود-

الذين يطلق عليهم البعض لفظ العبيد - حتى نساعدهم على الهروب إلى الحرية!»

وعاود فلتشر نفس الإحساس الذى اعتراه منذ سنوات عندما انطلق مع بعض زملاء دراسته من المدرسة لزيارة خيمة اجتمع فيها عدد من أتباع طائفة دينية سرية، وأخذوا يتلون صلواتهم وهم يمسكون بحيات من ذوات الأجراس. وقف فلتشر الآن وأخذ يصغى غير مصدق إلى تصفيق الجمهور! وبعد ذلك قام متحدث من السود، وأشار إشارة فى اتجاه الجمهور نهض على أثرها رجل أسود فتقدم وصعد السلم فى حذر وهو يتلفت يمنة ويسرة من فوق كتفيه. كان قصيراً قوى البنية حافى القدمين رث الثياب وقد حمل على ظهره حقيبة من الخيش تغطى كتفيه.

«لقد هرب ماسيو هذا! كان يختبىء بالنهار، ثم يجرى ليلاً مهتدياً بالنجم القطبى، على الرغم من يقظة المشرف ومطاردى العبيد المسلحين بالمسدسات، وبالرغم من كلابهم. وقد وصل إلى بر الأمان هنا الليلة قبل الماضية، وقد ظل نائماً طوال الوقت تقريباً منذ أن وصل».

وتوقف المتحدث الأسود بطريقة درامية وسط تصفيق الجمهور، ثم عاد يقول: «أتظنون أن ماسيو قد تحسن حاله الآن؟ هل هذا ما يبدو لكم؟ انظروا إذن إلى ظهره!»

وانتزع الحقيبة الخيش من على أكتاف الرجل الأسود، فكشف عن جروح كثيرة، التأم بعضها ومازال البعض الآخر ملتهباً. فندت عن الجمهور صيحات فزع وسخط، بل لقد بكى الكثير

منهم ، وفى خضم هذه الجلبة صاح المتحدث : « فلنأخذ الأصوات الآن! من منكم يريدنا أن نعيد ماسيو إلى العبودية ؟ »

وصاح الجمهور : « كلا ! كلا ! كلا ! » وعندها قال المتحدث : « فلنضع أيدينا إذن فى أعماق جيوبنا حتى نساعد الملايين الثلاثة من العبيد الذين لا يستطيعون الهرب من الجنوب - إلا إذا ساعدناهم ! »

كان الجمهور قد بدأ يتدافع إلى الأمام ، والأيادى الممتدة تلقى بالنقود الورقية والمعدنية فى العلبة التى قدمها المتحدث الأسود عندما نهض المتحدث الأبيض الثانى ، وبدأ صوته يعلو مثل وعاظ المواسم الدينية فى الريف قائلاً :

« اذكروا إخواننا وأخواتنا السود المستعبدين - المرهقين المنهكين من قطع أشجار الغابات لإعداد المزيد من الأرض الزراعية لحساب مولاهم ! اذكروا كيف يملأون جوالات القطن ثم يجرونها جرا .. إن طولها يقترب من أربعة أمتار وهى ثقيلة كالصخور ! اذكروا كيف يعمل الإنسان بأقصى طاقته ، ثم يضرب ويجلد حتى يبذل المزيد من الجهد - وكل هذا حتى يظل سيده وأفراد أسرته المدللين على ثرائهم وسمنتهم ! ثم اذكروا من قرروا الآن ضرورة الهروب من كل هذا ! لابد لهم أن يهربوا من حقول القطن ومستنقعات الأرز ! إنهم السود - رجالاً ونساءً وأطفالاً ، وحتى من فقدوا أبناء الأسرة الذين ماتوا من أخطار العبودية ، وغالباً من الضرب المبرح أو من الإرهاق فى العمل حتى الموت ! إنهم هناك فى كل مكان فى الجنوب ، وفى الولايات المتاخمة لنا حيث يوجد العبيد ، ينتظرون إشارة الهرب ! إنهم ينتظرون أن يروا

إيماءة رأس من «سائق» في «قطار الهروب السرى» أو يسمعوا ترديده لمقطع من الأغنية المتفق عليها، أو الإشارة التى تشبه صوت البومة، أو أى إشارة أخرى تقول لهم: «نعم يا أخى ويا أختى.. هذه هى اللحظة المناسبة! فلنهرب الآن إلى الشمال!» وهم هناك أيضا يلتحفون بظلام الليل وهم يجرون ويختبئون فى الكهوف وفى الأدغال، ويضربون مجاديفهم فى اليم فى قوارب صغيرة طلبا للنجاة! ومن خلفهم القساة غلاظ القلوب على الشاطئين، يطاردونهم بكلابهم، سعيا وراء مكافأة القبض على عبد هارب وجره مغلولاً في السلاسل وتعذيبه حتى يصرخ ويئن ثم يتهاوى على الأرض! فلترحمهم يارب ولتكن يدك فوق يدينا!» وشهق المتحدث حتى يسترد أنفاسه، ويوجه نداءه لأخير: «فلنتبع النجم القطبى جميعاً حتى نحرر نفوسنا! إذ لن تتحرر نفوسنا وإخواننا مقيدون في الأصفاد!»

كان فلتشر يريد أن يصيح فى الجمهور قائلاً إنه يعرف أن هذه الضروب من القسوة لم يشهدها العبيد السود الذين يعيشون فى مزرعة أسرته، وكان يشعر فى وقفته تلك كأنما يكتوى بالنار! كان يريد أن يصرخ فيهم قائلا إن والده ووالدته وهو نفسه يعاملون العبيد المقيمين فى المنزل كأنهم من أفراد الأسرة - كل ما هنالك أن العبيد يعرفون حدودهم ولا يتخطونها. وقال فى نفسه إنه لا يستطيع صادقاً أن يزعم العلم بما يلقاه العبيد الذين يعملون فى الحقل على أيدى بعض المشرفين، بل لقد سمع فى الواقع عن عقوبة الضرب التى تستهدف تأديب عبد ناشز أو عقاب من قبض عليهم من الهاربين. والواقع أن المرة الوحيدة التى شهد

فيها أمه تصرخ فى وجه أبيه كانت يوم عاد أحد المشرفين إلى المنزل بعد أن قبض على عبد هارب، ووقف على عتبة المدخل الخلفى مزهوا والدماء تلطخ سترته، إذ صرخت أمه قائلة : «اطرد هذا المخلوق من منزلى!»

واستدعى نفس المتحدث إلى المنصة عبداً آخر هرب منذ فترة وجيزة. فقام دون أن يتكلم بخلع قميصه واستدار حتى يرى الجمهور ظهره. كانت الأخاديد والتعرجات فيه تنم عن مرات الضرب العديدة المتوالية. كان ظهره أشبه شيء بلوح الخشب الخشن الذى تغسل عليه الثياب.

كان إليس - الوالد - وأبناؤه يتطلعون إلى وجه فلتشر، والصمت يرين على الجميع عندما عاد إليس، وهم من خلفه، إلى العربة.

وشعر فلتشر أنه ضحية استغلال ما، فهو جنوبى وضع ثقته فى جماعة من الكوكريين الهادئين المسالمين. ولذلك فعندما عادوا إلى المنزل أرغم نفسه على أن يسلك سلوكاً مهذباً، ونجح فى الصمود حتى آخر مراحل وجبة العشاء، ثم استأذن بلباقة وأهرع إلى غرفته حيث تقيأ كل ما تناوله من طعام.

وأقسم فلتشر راندول - الوريث الموعود لممتلكات والده - عضو مجلس الشيوخ فى الولاية، ذى النفوذ الكبير، وصاحب المزرعة الشاسعة التى تبلغ مساحتها ثلاثة آلاف فدان، والتى تنتج القطن والتبغ، وتمرح فيها المواشى ويعمل فيها ما يزيد على مائة عبد - أقسم فلتشر راندول أنه - بعد أن يودع أسرة إليس فى فيلادلفيا -

لن ينبس ببنت شفة طوال رحلة العودة الطويلة فى العربة ، التى سيقطعها دون توقف يوم الأحد من مدينة الحب الأخوى الى الكلية . وقال فى نفسه إن دعوتهم له جعلته يودعهم ثقته ، ولكنهم قد خانوا تلك الثقة خيانة منكرة .

وفى الساعة الأولى من ساعات السفر ، تعمد فلتشر أن يخلد إلى الصمت ، وأن يُشعر الإخوة أن جهامة صمته متعمدة ، بينما انخرط نوح مع أخويه فى حديث هادىء عما يشغل الكوكريين من قضايا لا يعرف عنها رابعهم فى العربة أى شىء .

وعندما وصلوا إلى الكلية كان الليل قد حل ، فألقى الإخوة تحية المساء على فلتشر عند مسكن الطلبة : كانت تحية مقتضبة ، وكذلك كان رد فلتشر عليها غمغمة مبهمة . وعندما اختلى بنفسه فى الغرفة ألقى حقيبته على الأرض واستلقى على السرير يبكى بدموع الغيظ والحنق ، ويضرب الفراش بقبضتيه .

وقرر فلتشر ألا يكتب الخطاب الذى اعتاد كتابته مساء كل أحد إلى أمه وأبيه ، فهو - أولا - لم يكن يريد أن يذكر زيارته إلى فيلادلفيا ، المدينة الكبرى ، دون أن يقص طرفاً من تجربته هناك . وهو لا يريد - ثانياً - أن يعترف بأى حال من الأحوال أنه قد صافح عبداً أسود - فذلك خطأ لا مبرر له ولا يغتفر ، ولم يكن بطبيعة الحال يود أن يُخبرهم أنه وقف على مشارف جمهور «قطار الهروب السرى» وهو يحتفل بهروب العبيد من مزارع الجنوب ! ولذلك فقد قرر فلتشر أن يكتب خطاباً إلى أهله فى يوم آخر من أيام ذلك الأسبوع .

وفى عصر اليوم التالى سمع الطرق الخفيف على الباب مرة ثانية ، بينما كان يقف أمام خزانة ملابسه ليخرج بلوفراً خفيفاً استعداداً للذهاب إلى مطعم الطلبة لتناول الطعام قبل زيارة المكتبة للاطلاع والبحث ، فتسمر فى مكانه دون حراك ، ثم عاد الطرق مرة ثانية . وخيل له أنه قد سمع دبيب أقدام تبتعد عن الباب .

وقرر فلتشر عدم الذهاب لتناول العشاء ، مستعيضاً بما كان لديه فى صندوق أرسلته إليه أمه : كان بالصندوق فطائر وما إلى ذلك من أطايب الطعام التى تعدها الطاهية العجوز (هاتى) ولكنه سرعان ما أحس باشمئزاز إذ هبت فى داخله ثورة غريبة ، ولو أنه لم يستطع أن يعرف كنه ما يدور فى رأسه ، فهو يفور ويمور وحده ، مما جعله يتساءل ما إذا كانت ظهور السود التى شققها سوط الجلاد ، وكلمات المتحدثين الذين كانوا أشبه شىء بالوعاظ ، قد جرحت روحه جراحاً أليمة .

وتمنى لو أن لديه من يثق فيه فيحادثه ، ويطلب إليه أن يبدى رأيه فيما حدث ، بل ويطلب منه النصح إذا استطاع . لم يسبق له أن نظر نظرة جادة إلى السود قبل اليوم ، فهم موجودون وحسب ، وهم جزء من الممتلكات فى المزرعة ، بل لا يختلفون فى حقيقة الأمر كثيرا عن حيواناتها . أما من يعملون فى الحقل فهم تحت إمرة المشرف ، وهو يتحكم فيهم بطريقته الخاصة ، ولم يكن من المتوقع أن يعرف المالك أو أحد أفراد أسرته أسماء أى من العبيد العاملين فى الحقل ، وأما من يعملون فى خدمة الأسرة مباشرة ، ويرعون شئونها فى المنزل الكبير ، فهم معروفون للأسرة - مثل

هاتى ـ العجوز السوداء ـ أو ماندى أو موسى . ولكن حتى هؤلاء لم يكونوا يشعرون بأنهم جديرون بأى اهتمام خاص .

وتمنى لو لم يكن قد شهد اجتماع «قطار الهروب السرى» ، إذ كان على يقين أنه لن ينساه أبداً ، وأن معناه الحقيقى سوف يتضح له بطريقة لا يستطيع الآن تحديد كنهها .

وقال فلتشر فى نفسه : ربما كنت أعرف من أستطيع أن أتخفف من أحمال روحى أمامه ! لا شك أنه سوف ينزعج إذا طلب منه الإصغاء إليه ، ولكنه سوف يصغى على أى حال ـ ألا وهو البروفيسور الدكتور س . إريك لنكون* الذى يتولى تدريس مادة فلسفة الأخلاق . ولكن فلتشر لم يكن قادراً على أن يستجمع شجاعته ، ويطلب منه هذا الطلب .

وعندما انصرم الأسبوع أحس فلتشر باكتئاب شديد . وكان يحضر إلى درس اللغة الانجليزية مبكراً ، ويهرع إلى مقعده فى الصف الأمامى ولا يحول بصره عما أمامه حتى ينتهى الدرس ، فيتمهل منهمكاً فى الكتابة حتى يشعر أن عين الصبى الكوكرى لم تعد تنظر إليه (فرفيق دراسته كان يجلس خلفه بخمسة صفوف) ثم يرحل .

وفى الأسابيع التالية دأب فلتشر على أن يجلس وحيداً وفى هدوء فى مكتبة الكلية ـ حيث انجذب إليها بشدة ـ يبحث عن إجابات لتساؤلاته الخاصة .

وفى درج بطاقات الكتب استطاع أن يحدد عناوين الموضوعات التى يريدها ، ثم أخذ يطلب الكتب أو الكتيبات

الخارجية التى يريدها فيما بين طلبات الكتب الدراسية التى يحتاجها من يكتب بحثا أو رسالة حتى لا يثير فضول أحد أمناء المكتبة. وكان مما طلبه بعض المعلومات عن «قطار الهروب السرى» و «لجنة الرعاية» فى فيلادلفيا، وبعض الكتب والكتيبات والتقارير عن السود الأحرار والأرقاء.

وكان يقرأ تلك المعلومات، وهو منكفىء على كتبه فى المكتبة حتى لا يتعرف من يمر قريباً منه على الموضوع الذى يقرؤه. لم يكن يدرى أن «قطار الهروب السرى» قد اكتسب تلك التسمية فى عام ١٨٣١ عندما قفز أحد العبيد الهاربين من ولاية كنتاكى - واسمه تايس دافيدز - فى نهر أوهايو، فأفلت بالكاد من سيده والمطاردين المأجورين الذين استقلوا قارباً وأخذوا يجدفون بكل طاقتهم خلفه وعيونهم لا تفارقه وهو يسبح. ثم قفز إلى الشط فى جانب ولاية أوهايو من النهر، ثم اختفى فجأة تماماً عن أنظار مطارديه من كنتاكى الذين تملكتهم الحيرة وأخذوا يمطرونه بوابل من السباب والشتائم، دون أن يعثروا له على أثر. وصاح أحدهم: «لابد أنه سلك طريقاً سرياً تحت الأرض!» ومع تكرار العبارة وترديدها فى الوقت الذى كان الشمال الأمريكى فيه مبهوراً بالقطارات التى تسير بالبخار، تحورت العبارة إلى «طريق القطار السرى»، ومن ثم اكتسب من يساعدون الهاربين أسماء «السائق» و «ناظر المحطة» أو «عامل الفرامل» أو «العطشجى».

واكتشف فلتشر أن «قطار الهروب السرى» و «لجنة الرعاية» يشتركان فى هدف واحد هو مساعدة العبيد السود فى الوصول

إلى الحرية ، ولكنهما جهازان مختلفان . إذ أدى نمو «قطار الهروب السرى» إلى إنشاء جهاز يدعمه هو «لجنة الرعاية» التى تتكون من البيض والسود معاً ، فى المدن الكبرى مثل نيويورك وبوسطن وفيلادلفيا . أما «لجنة الرعاية» فى فيلادلفيا فكانت أقوى تلك اللجان ، وقد أنشأها عام ١٨٣٨ أحد السود المحررين واسمه روبرت بيرفيس . وتقدم اللجنة الأغذية والملابس والحماية القانونية ونقوداً تكفى حياة الكفاف للعبيد الهاربين حتى يستطيعوا الاستقرار أو الوصول إلى غاية رحلتهم ، وغالباً ما كانت تلك الغاية كندا . وإلى جانب هذه الولاية ، اشتهرت أيضا ولايات إلينوى وإنديانا وأوهايو بالنشاط المعادى للرق وباستضافة أكبر الأعداد من الهاربين ومساعدتهم ، وكان معظمهم يأتى إليها مبحراً فى نهر المسيسبى أو عابراً نهر أوهايو .

وعكف فلتشر ، فى استغراق وشغف ، على دراسة قوانين تجارة الرقيق . فاكتشف أن القانون الذى أصدره الكونجرس عام ١٨٠٧ بتحريم تجارة الرقيق قد جعل تهريب العبيد عملية مربحة ، إذ أن أصحاب مزارع الجنوب كانوا فى مسيس الحاجة إلى المزيد من العبيد لمزارع القطن التى يمتلكونها ، والتى أصبحت نشاطاً تجارياً ضخماً منذ اختراع آلة حليج الأقطان عام ١٧٩٣ .

وعندما ألغت ولايات الشمال الرق ، ازداد عدد العبيد الذين يحاولون الهرب من الجنوب إلى الشمال طلباً للحرية .

واتسعت بالتدريج شبكة الهروب وتحسنت ، فكان العبيد

ينطلقون عادة فى جنح الليل البهيم ، وكثيراً ما كان مرشدوهم من الكوكريين ، وكان الكوكريون وغيرهم من أصدقاء الهاربين يخفونهم فى أثناء النهار ، ثم يصحبونهم بالليل إلى أقرب طريق مأمون أو مدق أو نهير . كان الجهد محفوفاً بالخطر إذ كانت الصحف تنشر أخبار الهاربين وتصف ملامحهم، وكان المطاردون يجدّون فى أثرهم- ومعهم كلابهم وأذون التفتيش والبنادق. وكان العاملون فى شبكة «قطار الهروب السرى» يجازفون مجازفة كبيرة فى عملهم إذ كانوا يخاطرون بأرواحهم ، وكثيراً ما كانوا يضحون بأرواحهم فعلاً إذا وقعوا هم فى قبضة المطاردين بدلاً من الهاربين . وقرأ فلتشر فيما قرأ أن فيلادلفيا كانت مسرحاً لأكبر نشاط قامت به شبكة «قطار الهروب السرى» .

وأخيراً- فى عام ١٨٥٠- صدر «قانون هروب العبيد» وهو الذى يقضى بالغرامة أو السجن على أى شخص تثبت عليه تهمة مساعدة عبد على الهروب ، وكان رد «قطار الهروب السرى» على ذلك زيادة نشاطه عن ذى قبل ، بزعامة الكوكريين . وكان بعض العبيد المحررين يخاطرون بأرواحهم عدة مرات ، إذ كانوا يعودون لإنقاذ أفراد أسرهم وغيرهم ممن تركوهم فى الجنوب- مثل السيدة هاريت تابمان السوداء التى هربت ثم عادت عدة مرات فأخرجت من الجنوب العديد من الأرقاء ، وهى التى جعلت مالكى العبيد البيض يستبد بهم الغضب فيجمعون مكافأة ظلت تزيد حتى بلغت أربعين ألف دولار ، رصدت لمن يقبض عليها .

ولكن ما كان «قطار الهروب السرى» لينجح لولا البيض . إذ قرأ فلتشر أن بعض العاملين فى هذا الجهاز كانوا يذهبون إلى

الجنوب ويزاولون مهنهم- كالمدرسين مثلاً والقسس- ثم يستخدمون مواقعهم فى مساندة قضية مناهضة الرق. وكان بينهم من اجتهدوا فى جمع المعلومات عن المزارع الكبيرة وأصحابها، وأعداد العبيد والمشرفين حتى يساعدوا فى إعداد ملفات «قطار الهروب السرى». وأحياناً ما كان يقبض على هؤلاء العاملين من البيض، فيسجنون ويضربون بالفلقة، أو يشنقون أو يعذبون حتى الموت.

وكان فلتشر بعد أن يغادر المكتبة كل ليلة يسير فى أطول طريق يوصله إلى المسكن الجامعى، متمهلاً فى سيره وذهنه فى صراع مع تلك الحقيقة الغريبة- وهى أنه لم يكن يعلم- بل لم يكن يكترث أن يعلم- ما يعلمه الآن عن العبيد السود.

الفصل الثالث

كانت والدة فلتشر قد فاض بها الكيل وأضناها القلق. وكان الخطاب الذى تلقاه فلتشر منها يقول: «ماذا أصابك يا بنى؟ أنا ووالدك فى ضيق شديد! كيف لا يرسل إلينا ولدنا خطاباً ـ لا ولا حتى بطاقة صغيرة ـ طوال الأسابيع الستة الماضية؟ لا يمكن أن تتصور ما جال بخاطرنا من أوهام ومخاوف!»

وكان فلتشر قد ارتكب «مخالفة» أخرى جعلته يتلقى طلباً بالمثول أمام عميد شئون الطلبة فى مكتبه عصر يوم الجمعة.

وقد وجد سلوك العميد هذه المرة مختلفاً كل الاختلاف. كان واقفاً ـ مثل المرة السابقة ـ عندما دخل عليه فلتشر، ولكنه أشار فحسب إلى الكرسى الموضوع أمام مكتبه قائلاً: «اجلس يا سيد راندول! لا شك أننا فى حاجة ماسة إلى الحديث».

«نعم يا سيدى».

«لقد هبطت درجاتك بصورة مفزعة. كنت مجداً وكانت درجاتك رائعة فى برنامج التخرج فى ثلاث سنوات، ولكن متوسط درجاتك اليوم قد وصل إلى دون المقبول، وهكذا فعليك العمل بجد فى الصيف القادم حتى تعوض هذا الانخفاض، وترفع درجاتك إلى مستوى المقبول. أفهمت؟»

«نعم يا سيدى».

وتفحصت فلتشر عينا الرجل المجرب. إذا كان العميد ريدجلى قد خبر ألوانا كثيرة من مآسي طلبة الكلية. ونجح فى اكتشاف المشكلات الناجمة عن الضغوط التى يعانيها الطلبة من توقعات آبائهم بتفوقهم. واستطاع أن يحلها. كما استطاع أن يساعد الشبان الذين جنحت بهم وأغرقتهم سفن الحب، وأولئك الذين كادوا يجنون من هول الصدمة عند اكتشاف حمل عشيقاتهم، وتولى التحكيم فى الحالات التى يلجأ فيها الأستاذ إلى التخويف والتهديد، كما شهد بعض حالات الاكتئاب الشديد التى أدت إلى الانتحار فى غرف مسكن الطلبة.

«إنك طالب متميز ياسيد راندول، ولكن شيئا ما قد ألم بك فى الفترة الأخيرة». كان العميد حريصاً على استخدام الزمن المضارع إذ عاد يقول: «قل لى يا سيد راندول. ماذا يلم بك من كدر. دعنى أحاول مساعدتك».

ونظر إليه راندول نظرة مباشرة وقال: «عندما كنت هنا آخر مرة يا سيدى، قلت لى إن تغيير المكان والناس لا يمثل فى كل حال حلاً للمشكلة. وقد كنت مصيباً فى هذا. إذ أن مشكلتى تكمن فى نفسى، وأنا الآن أحاول أن أجد وسيلة لمعايشة هذه النفس».

لم يكن قد انقضى من الفصل الدراسى الصيفى إلا نصفه حين عاد متوسط درجات فلتشر إلى سابق عهده بفضل نظام الاستذكار الحازم الجاد الذى اتبعه، وعندها خصص عطلة نهاية الأسبوع.

حسبما عاهد نفسه من قبل ـ لزيارة فيلادلفيا . وكان هذه المرة وحده .

كان فلتشر طول الطريق متجهم القسمات شارد اللب ، عاجزاً عن التمتع بتجربة ركوب قطار ردنج لأول مرة ، والجلوس في هذه العربة الحديثة التى تهتز يمنة ويسرة على طول الطريق إلى فيلادلفيا .

وعندما وصل أسرع بالخروج من محطة فيلادلفيا الضخمة حيث وجد صفاً من سائقى عربات الأجرة الصغيرة ، وكان أول سائق يسأله يعرف دكان «فورتاس ـ لصناعة أشرعة السفن» وعنوانه .

وفى أثناء سير العربة كان فلتشر يحس بخدر غريب مبعثه العزم الثابت ، وعندما أبطأ سيرها آخر الأمر بالقرب من المبنى العريض الذى يتحرك فيه العمال السود والبيض فى أردية العمل البيضاء الموحدة حاملين الأقمشة هنا وهناك مال فلتشر إلى الأمام قليلاً ، وقال للسائق إنه لن يغيب بالداخل ويرجوه أن ينتظر .

وأسرع أحد العمال البيض دون غضاضة ليقول للسيد فورتاس إن زائراً يريد أن يقابله . وعندما خرج فورتاس من الدكان بدا عليه أنه لا يكاد يذكر لقاءهما الأخير ، فقال له : «لقد قابلتنى مع الإخوة إليس من مدينة برنستون» .

«أجل أذكر ذلك !» وأشرق وجه السيد فورتاس لتذكر ذلك اللقاء ، ولو أن فلتشر تمنى أنه لا يذكر ما حدث بعد ذلك . ومع

ذلك فقد أردف قائلاً : «لقد عدت لرؤيتك لأننى أرجو أن تسمح لى بمصافحتك» .

وبدت الحيرة على وجه صانع الأشرعة ، فأسرع فلتشر يقول بصراحة . «لابد أن ُوضح لك المسألة» . ورد فورتاس قائلاً : «بل أنا أقدر الموقف تماماً ، فليست تلك تجربة غير مألوفة» ، وفكر لحظة ثم قال : «ولكن عودتك إلينا أمر رائع ومشجع» .

وقال فلتشر : «أنا لم أعد من أجلك أنت ، بل من أجلى أنا» . وقد حرص فلتشر أن يتحاشى استخدام تعبير «يا سيدى» أو «يا سيد» فى حديثه .

ورد فورتاس قائلاً : «شكراً . ولن تنمحى زيارتك بسرعة من ذاكرتى ! هل تتفضل بزيارة مصنعنا ؟ يشرفنى أن أكلف أحد العمال بمصاحبتك» .

«شكراً لهذه اللفتة ولكن لا .. فلن آخذ المزيد من وقتك ، كما أن العربة التى استأجرتها فى انتظارى» .

وتراجع فورتاس خطوة إلى الوراء وقال : «لا بأس . ولكننا نرحب بزيارتك فى أى وقت تريد» .

وقال فلتشر : «شكراً لك» ثم عاد إلى العربة ، وأعطى السائق عنوان محل الخضراوات الذى تملكه أسرة إليس .

وطلب فلتشر من السائق أن يدور حول البناء الضخم ، حتى إذا كان بحذاء دكان الخضراوات راعه أنه يعج بالزبائن ، فقال للسائق : «أرجوك أن تقف هنا وأن تنتظرنى» .

ووقف على الرصيف ساكنا هنيهة بينما كان السابلة رائحين غادين أمامه، وعندما شعر آخر الأمر أنه قد تغلب على إحساسه بالخجل والحرج، استجمع شجاعته ودخل الدكان.

ووسط حشد من زبائن الدكان من النساء المنهمكات فى المساومة مع البائع وقعت عين فلتشر على نوح ـ الابن الأكبر لعائلة إليس ـ فى نفس اللحظة التى رآه فيها نوح، فألقى الأخير بالخسة التى كانت فى يده واندفع إلى فلتشر فاحتضنه. وقال فلتشر: «يسعدنى أن أراك بخير» ورد نوح قائلا: «أنا أعمل مديراً لدكان الأسرة الآن ـ كما سبق أن اعتزمت».

وكان فلتشر قد أعد العبارة التى أراد أن يقولها لنوح بعناية قبل أن يترك برنستون وتدرب عليها عشرات المرات، ثم كررها وهو فى القطار، ثم قالها بطريقة مباشرة وصريحة ـ (فهما صفتان يعرف أن الكوكريين يتحلون بهما):

«أرجو أن تغفر لى أنت وأخواك وأسرتك. إننى فى حاجة إلى ذلك. وإذا كنت لا أغالى فى الطلب ـ»

ورد نوح بصدق وحماس: «لا داعى لطلب أى شىء..» ـ ثم أضاف: «لقد عاد والدى وأخواى لتوهم إلى المنزل لتناول الغداء، إذ أن أندرو وبول يقضيان الصيف هنا، وسوف يسعدان لمرآك. ألا يمكن أن تبقى بعض الوقت؟»

وقال فلتشر: «لا.. فليكن ذلك فيما بعد! لشد ما يسعدنى ذلك، لكننى مشغول بأمر خاص، ولابد أن أنجزه الآن».

ورد نوح قائلاً : « سوف تقدر أسرتي موقفك ـ مثلما أقدره . لا أخفي عليك أننا في البداية قد غضبنا بعض الشيء ، فنحن بشر . ولكننا انتهينا إلى أنك قد تعرضت بسببنا إلى ضغوط نفسية كبيرة وابتهلنا إلى الله أن يعيدك إلينا يوماً ما . وها أنت قد عدت . واعتقد أنك تعرف أننا ـ نحن الأصدقاء ـ نؤمن إيمانا عميقاً بالصلاة والابتهال » .

« شكراً لك ياصديقي ».

واستدار فلتشر عائداً إلى عربته المأجورة .

وسأله السائق : « إلى أين يا سيدي ؟ »

« إلى قاعة الاستقلال » .

كان فلتشر يريد أن يعيد النظر إلى ذلك الصرح الحجري الرمادي التاريخي ، بعد أن اتسع نطاق إدراكه لجوانب الضعف البشري . فهو قد اكتشف من أبحاثه في مكتبة الكلية مفارقة تاريخية صارخة وهي أن واضعي الدستور الذين وقعوه ، ووقعوا وعوده الطنانة بالحرية والعدالة للبشرية جمعاء ، كان الكثير منهم ـ بل كان بعضر، أبرزهم ـ من مُلاَّك العبيد .

ورغم أن فلتشر لم يأت إلى فيلادلفيا وفي نيته أن يعيد التجربة المريرة التي تعرض لها في الاجتماع الأسبوعي الذي تعقده « لجنة الرعاية » بالاشتراك مع « قطار الهروب السري » يوم السبت ، فقد وجد نفسه يطلب من السائق أن يتجه به إلى هناك .

ورد السائق باقتضاب . «لن أستطيع انتظارك يا سيدى» .

وقال فلتشر «لا بأس» . كان يرجو أن توحى رنة صوته بالثقة ، ويتمنى لو كان فى الحقيقة واثقاً ، ولو قليلا مما يفعله .

وعندما وصل إلى مكان الاجتماع اكتشف أن مشاعر الغضب قد عادت إليه ، فوقف فى حنقه صامتاً متجهماً يستمع إلى الخطباء الذين توالوا على المنصة (ومعظمهم من السود) وأخذوا فى حماسهم يمزقون مشاعر الجمهور تمزيقاً ، بينما استمر العبيد الذين هربوا منذ وقت قريب يكشفون عن ظهورهم التى شوهتها الجراح البشعة . كان غاضباً ممن أوقعوا هذه العقوبات الغاشمة الشرسة بالعبيد مما جعل الجنوب مداناً فى أعين الناس . كانوا لاشك من المشرفين . حسبما يقول الهاربون . وكانوا أحياناً من بين ملاك المزارع أنفسهم . كما حكت الكثيرات ممن هربن من الرق عن ضروب من القسوة الجسدية لا يصدقها العقل من جانب السيدات اللائى كن يملكنهن .

ولم يستطع فلتشر أن يبقى طويلا ، إذ أشار إلى إحدى العربات التى أوصلت أحد الركاب واستقلها عائداً إلى محطة السكة الحديدية .

وعندما عاد فلتشر إلى غرفته بالمسكن الجامعى جعل يفكر جديا فى ترك الكلية والعودة إلى منزله . لاشك أن والده سيحس أول الأمر بخيبة الأمل بل وسوف يحزن لعودته ، فتفوق ابنه فى

الدراسة على معظم طلاب الشمال فى كلية نيوجيرسى فى برنستون- ذات الصيت الذائع- يعتبر جوهرة فى تاج طموحه السياسى . ولكنه كان يدرك أيضاً أن والده سوف يقدر موقفه بسرعة ، بل إنه سوف يتفاخر بأن عودة ابنه لتحمل المسئولية تثبت أن ذاك الشبل من ذاك الأسد ! ولا شك أن أمه سوف تبكى بل ربما ظلت تذرف الدموع عدة أسابيع ، ولكنها سوف تفرح بعودة ابنها إلى المنزل عودة نهائية . وقال فلتشر فى نفسه : نعم ! ربما كان من الأفضل أن أعود إلى المنزل بصفة نهائية ، وأبدأ التدرب على إدارة المزرعة ! كان يعلم أنه سوف يرث كل شىء فى المستقبل ، فهو الابن الوحيد ويتوقع الجميع منه أن يواصل العمل فى ظل تقاليد الأسرة . وفكر فى بعض الخطوات التى يستطيع اتخاذها لتحسين أحوال العبيد ، إذ سيضمن أن يلقى جميع العبيد المخلصين الطاعنين فى السن المعاملة الحسنة التى يستحقونها عن جدارة لقاء العمل الشاق الذى قاموا به طوال حياتهم ، ولقاء وفائهم وتفانيهم .

وفى صباح يوم الثلاثاء التالى اختتم الدكتور لنكون محاضرته عن الدافع الغريزى الذى يدفع كل إنسان إلى تحديدذات إيجابية له ، وإلى تحقيق حريته داخل المجتمع الذى يعيش فيه ، ثم عرض على الطلبة ورقة عليها كتابة اشتبكت فيها الحروف قائلاً : « هذه نسخة حصلت عليها من رسالة كتبها صاحبها منذ فترة قصيرة ، وأعتقد أنها أبلغ من محاضرتى فى إيضاح ما أريد إيضاحه » .

وعدّل من وضع نظارته الطبية ، ثم نظر إلى الطلبة قائلاً . « والآن أريد أن يخرج كل منكم كراسته وقلمه ويستعد لنسخ هذه

الرسالة . سوف أقرؤها بعناية وأمليها عليكم ببطء » .

وتردد فى القاعة صوت الكراسات الثمانى والعشرين وهى تفتح ثم ساد الصمت . وابتدأ البروفيسور لنكون فى القراءة - ببطء ووضوح :

« فى الأمة التى تتكون من عناصر متباينة مثل أمتنا ، والتى تضم شتى شعاب الأسرة البشرية .. ينبغى أن يتساوى الجميع .. مثلما يتساوون أمام القانون .. فلا يتميز غنى عن فقير ، أو رفيع عن وضيع ، أو أسود عن أبيض .. بل ينبغى أن يكون ثمّ بلد واحد ، وجنسية واحدة وحقوق متكافئة .. ومصير مشترك للجميع ».

« وإذا لم تستطع الحكومة حماية حق أقل المواطنين شأناً فى الحياة والحرية ونشدان السعادة ، أو استطاعت ولم تفعل ... فينبغى إصلاحها أو تغييرها دونما إبطاء » .

وبعد أن قرأ كلمة « إبطاء » قال البروفيسور لنكون : « هذه أيها سادة نهاية الرسالة .. والآن دعونى أسألكم : هل يعرف أحد منكم كاتبها ؟ »

وتلفت الطلبة إلى بعضهم البعض فلم يكن أحد يعرف الإجابة ، وخطر لفلتشر أن رنة الكاتب تشبه نبرات واضعى الدستور ، وأحس برغبة مؤكدة فى قراءتها من كراسته مرة ثانية ، بل وحفظها عن ظهر قلب ، وكتابة مقال الأسبوع القادم الذى يتكون من ألفى كلمة عنها .

ولوح البروفيسور لنكون مرة ثانية بالرسالة قائلاً : «لقد كتبها أيها السادة رجل كان عبداً يوماً ما - رجل من السود الذين ولدوا فى أغلال الرق فى ولاية ماريلاند .. ولكن مولاه علمه القراءة والكتابة - ثم استطاع الهرب» .

واعتدل الطلبة فى مقاعدهم عندما قال البروفيسور لنكون : «اسم كاتب هذه الرسالة هو فريدريك داجلاس» وتوقف ليرى تأثير الاسم عليهم قبل أن يسأل : «كم منكم سمع عن فريدريك داجلاس ؟»

ورفع خمسة طلاب أيديهم . ثم قال الأستاذ : «لدىّ صورة جيدة له أودكم أن تنظروا إليها» .

وعرض عليهم البروفيسور لنكون صورة مرسومة بالحبر ، ثم وضعها فى يد أقرب الطلبة إليه قائلاً : «أيها السادة ! لدينا من وقت الدرس ما يكفى لتبادل هذه الصورة والنظر إليها بسرعة» .

وعندما وصلت الصورة إلى فلتشر جعل يحدق فيها بشدة،إذ شعر أنه قد انجذب إلى صورة هذا الرجل الأسود الذى يشبه الأسد ، وإلى عينيه الناريتين اللتين تبرقان فى وجه ينطق بالقوة والصلابة كصخور الجرانيت .

وعلى مدى الأسابيع التالية لم يهنأ فلتشر بالنوم العميق بل كان يقضى معظم ساعات الليل وهو يتقلب قلقاً فى فراشه ، وانتابته أحلام لا يذكر إلا غرابتها المفزعة .

وذات ليلة ، والفصل الدراسى الصيفى يطوى صفحته ، أحس فلتشر أنه قد أدرك أخيراً ما كان يسعى إليه . وجاءه ما ينشده فى صورة إشارة بسيطة واضحة ، فألقى بأغطية الفراش ، وأهرع إلى مكتبه فأخرج كراسة فلسفة الأخلاق حيث نسخ رسالة فريدريك داجلاس ، وبدأ يخط الفكرة التى عنت له ، كأنها قصيدة من لون ما :

« إذا كان إنسان ما قادراً على كتابة هذا الخطاب ،
وكان هذا الإنسان قد ولد فى أغلال الرق ، أو العبودية ،
وإذا كان هذا الإنسان ملك يمين كائن آخر ، فلابد أن
الرق ، أو العبودية ، خطأ » .

الفصل الرابع

في صباح يوم مطير من أيام سبتمبر، كان مدير «لجنة الرعاية» للمنطقة الشمالية فى فيلادلفيا، مستغرقا فى الحديث مع «كبير سائقى» «قطار الهروب السرى» للمنطقة الشمالية الذى كان يزوره زيارة دورية. إذ كان الرجلان يشتركان فى الهدف الأساسى لعملهما، وهو مساعدة العبيد الهاربين من الجنوب على التمتع بالحرية فى مكان ما بالشمال، وكانا يحرصان على اللقاء مرة واحدة على الأقل كل شهر، لغرض أساسى وهو تقسيم العمل فى تلبية احتياجات الهاربين ما بين الوكالتين، أو للتعاون الوثيق بينهما فى مهمة واحدة فى بعض الحالات.

وقطع عليهما حبل الحديث طرْق على باب المدير. كان الطارق عبداً أسود نال حريته، وأخذ يتدرب على الأعمال المكتبية، وعندما أذن له بالدخول أعلن أن شاباً أبيض يقف بالخارج فى الرذاذ المنهمر وأنه يقول إنه طالب فى الكلية ويصر على مقابلة المدير. وأضاف «الكاتب» أنه قد أخبر الشاب أن دخول المبنى محظور إلا لمن يعرف كلمة السر - وهى تتغير من أسبوع لأسبوع - ولكن الشاب يرفض الرحيل حتى بعد أن ظل المطر يهطل عليه نصف ساعة كاملة.

وتبادل مدير «لجنة الرعاية» نظرات حائرة مع كبير سائقى

«قطار الهروب السرى» الذى قال له: «إننى أتحرق شوقاً لاستجلاء الأمر .. مثلك تماماً» فقال مدير لجنة الرعاية للكاتب: «لا بأس إذن .. اسمح له بالدخول». ثم قال للسائق. «يزورنا بعض طلاب الكليات ثلاث مرات أو أربع مرات فى السنة، ويلحون فى طلب الحصول على أحاديث صحفية، بل يصل إلحاحهم إلى حد العدوانية، حتى يكتبوا عن تفاصيل النشاط الذى نقوم به. أعنى أنهم يطلبون الحقائق والأرقام والتفاصيل. وعادة ما أخبرهم بطريقة مهذبة بأننا لا نستطيع التعاون معهم نظراً لطبيعة العمل الذى نقوم به».

وقال كبير السائقين: «إذا نُشرت الأحاديث الصحفية فكشفت شخصيات المتعاملين معنا فى المواقع السرية فسوف تقضى علينا تماماً» ثم نهض من مقعده قائلاً: «سأنتظر بالخارج أثناء لقائك مع هذا الشاب». واعترض المدير قائلاً: «لا لا! بل ابق حيث أنت! فأنا أضمن ألا يحدث ما يعرضنا لأية أخطار!»

وعندما قرع الباب مرة ثانية صاح المدير «ادخل!» كان الكاتب قد أخذ معطف المطر من الشاب، ولكن الأطراف السفلى من سرواله لم يكن يغطيها المعطف وكانت مبتلة بللاً شديداً، ولم يملك الكاتب أن يخفى ضيقه لتساقط قطرات الماء على الأرضية عندما دخل فلتشر إلى الغرفة. وأشار المدير إلى الكاتب أن يخرج ويغلق الباب من خلفه.

وتفحصت عيون الرجلين منظر الشاب عدة ثوان. إذ كان القلق باديا عليه لأنه لم يكن يتوقع أن يرى سوى السيد ماكدونالد مدير «لجنة الرعاية».

وأشار المدير إلى مقعد فجلس فلتشر عليه، ثم قال: «لقد تأثرنا بوقوفك طويلاً فى المطر، ولكنك قد قطعت علينا اجتماعنا فقل ما تريد بإيجاز».

وتذكر فلتشر التعليمات التى أملاها على نفسه «اتبع طريقة الكوكريين فتحدث بهدوء وبصراحة وبأسلوب مباشر». وقد نجح فى ذلك رغم توتره الشديد. فقدم لهم نفسه ببساطة ووضوح: قال إنه طالب فى الكلية فى برنستون، وأنه من فروع الجيل الثالث لعضو فى مجلس الشيوخ لولاية كارولينا الشمالية، وهو رجل ذو نفوذ وثراء واسع إذ يمتلك مزرعة هى الرابعة فى الولاية من حيث الحجم- ويفلحها أكثر من مائة عبد.

وبدت على الرجلين سمات الاهتمام الشديد.

«ولماذا التحقت بالكلية فى برنستون؟»

«يعرف والدى امتياز التعليم فى الشمال، ويعتبر أننا متفوقون على معظم أهل الشمال».

وارتسم على وجه ماكدونالد تعبير الجد البالغ قبل أن يسأل: «وما الذى أتى بك اليوم هنا؟»

«أريد أن أتطوع ياسيدى»

«هكذا!؟ أنت إذن شاب يمتلك العبيد، لكنه يريد أن يساعدنا!»

«حاول أن تثق بى ياسيدى»

ولم تخف على أحد- حتى على فلتشر نفسه- رنة الغرابة فى

هذه العبارة فاستدرك قائلاً : «حاول أن تسمعنى على الأقل يا سيدى ـ » .

وتطلع ماكدونالد فى ساعته ثم قال : « أمامك خمس دقائق » واعتدل فى كرسيه وتطلع إلى زميله الذى أومأ له بالموافقة .

وكافح فلتشر حتى يتغلب على توتره وقلقه ، وأجبر نفسه على التحكم فى نبرات صوته عندما بدأ يقص عليهما تاريخ علاقته العاصفة مع الطلاب الشماليين ، وعدم انسجامه مع زملاء الدرس الجنوبيين ، وحكى لهما كيف أحس هو ووالداه بالزهو لأن مجموع درجاته فى شهادة السنة الأولى أتاح له القبول فى فصول الدراسة الصيفية بحيث يحصل على إجازته الجامعية فى ثلاث سنوات فقط ، وبحيث لا يقضى فى موطنه الأصلى إلا عطلة عيد الميلاد .

وقص فلتشر قصة لقائه مع الإخوة الكوكريين الثلاثة ، وزيارته فيلادلفيا ، وكيف عرَّفوه بصانع أشرعة سفن من السود « الأصدقاء » وغضبه أشد الغضب لمصافحته ، وكيف حثه والد الكوكريين على حضور اجتماع مشترك «للجنة الرعاية» و «قطار الهروب السرى» .

كانت مشاعره بادية على وجهه كأنما رسمها رسام ، وهو يبذل قصارى جهده ليحكى كيف تزلزل كيانه واهتز من الأعماق لما رأى وسمع .

ومال الرجلان ـ المدير وسائق «قطار الهروب السرى» ـ إلى الأمام بعض الشىء إذ أسرهما هذا الشاب بتعريته الشفافة

لأعماق روحه. كان يتألم وهو يحكى كيف نبذ أصدقاءه الكوكريين، وكيف انجذب للعودة إلى فيلادلفيا وحده بقوة تشبه قوة المغناطيس، لزيارة صانع الأشرعة وأسرة إليس، وكيف طلب منهم الصفح وكيف غفروا له، ثم تحدث عن زيارته لقاعة الاستقلال بسبب ما قرأه عنها فى مكتبة الكلية. كما قص عليهما قصة أول زيارة يقوم بها وحده إلى اجتماع مناهضة الرق، والاجتماعات التالية التى شهدها بعد ذلك.

واخيراً أخبرهما بالمعاناة التى كابدها حين تجاذبته القوتان المتناقضتان، وكيف قرأ رسالة فريدريك داجلاس، وكيف كان إدراك مغزاها آخر الأمر عاملاً ساعد على تحوله.

« والآن أشعر بنفور من امتلاك العبيد يجعلنى لا أرى بديلاً عن الحضور لمقابلتكما اليوم ». كان فلتشر مستنزف المشاعر ممزق النفس، فتردد بعض الشيء وهو يقول: «لقد اتيت للتطوع للمساعدة بكل ما فى طاقتي - واسمحا لى أيها السيدان أن أسألكما ماذا ينبغي أن افعل حتى أحوز ثقتكما؟»

وضغط ماكدونالد على أحد الأزرار، فظهر الكاتب الأسود لدى الباب، فقال له المدير: «أحضر ملف كارولينا الشمالية».

«فوراً يا سيدى!»

ولم يتبادل الرجلان آية نظرات بل استغرق كل منهما فى أفكاره حتى عاد الكاتب ووضع الملف على مكتب المدير.

وقلب ماكدونالد صفحات الملف وتوقف عند صفحة ما قرأ ما

فيها ، ثم تطلع إلى فلتشر قائلاً :

« اسم أسرة والدك هو راندول والاسم الأول لوالدتك هو إثيل . هل هذا صحيح ؟ »

كان وجه فلتشر لوحة ناطقة بالدهشة والعجب . وبدأ المدير يذكر بعض الأسماء : « هام ، ليم ، قيصر ، بومبى ، راستوس ، كُلو وِى ، ليزا ، لوثر - هل تعرف أحداً من هؤلاء ؟ »

وبدت الحيرة على فلتشر « لا يا سيدى ».

« تعنى أنك تريدنا أن نصدق أنك على استعداد للمخاطرة بحياتك لمساعدة العبيد السود حتى وأنت لا تعرف أسماء العبيد الذين ينتمون إليك ويعيشون فى المزرعة التى سوف ترثها؟ »

واحمر وجه فلتشر خجلا لهذه العبارة اللاذعة ، ولكنه استرد رباطة جأشه وقال : « وهل تستطيع أنت أن تلم بأسماء معظم من تساعدهم ؟ »

وقال ماكدونالد : « نريد أن نستفسر عنك من بعض معارفك - فى سرية تامة بطبيعة الحال . هل نسأل أصدقاءك الكوكريين مثلاً ؟ »

وقال فلتشر : « أرجو ألا يعلموا شيئاً عن هذا الأمر يا سيدى ، خصوصاً وأن أحدهم زميلى فى الدراسة » . وتردد قبل أن يضيف : « أما إذا كان لابد من ذلك - فلا بأس . ولكن - صدقنى - لقد أتيت إلى هنا وحدى » .

ونظر المدير إلى رئيس السائقين ثم أومأ برأسه إلى الباب ،

وعلى الفور نهض الرجلان بينما التفت ماكدونالد إلى فلتشر وقال له : « أرجو أن نستأذن منك لحظة واحدة » .

« تفضلا » .

وفى الممر خارج الغرفة سأل ماكدونالد صديقه بصوت خفيض : « ما رأيك بصراحة ؟ » ورد السائق قائلاً : « إننى بصراحة مبهور . وهو فى اعتقادى صادق . هذه أول تجربة لى مع متطوع صغير السن مثله ، ولكنه ذكى ويوحى حديثه بالكفاءة » .

وقال المدير : « قلت فى نفسى وأنا استمع إليك إن خلفية ذلك الشاب الجنوبى تهيىء له أفضل قناع يتخفى خلفه إذا عمل معك » .

« لقد اتفقت أفكارنا إذن . لكننى أريد فترة أتأمل فيها الفكرة ـ ربما لاختباره بصورة ما » .

وقال ماكدونالد : « هذا طبيعى . لا داعى للعجلة على الإطلاق . لقد أتى إلينا هنا لأن مؤسستنا مؤسسة علنية لكنه يخلط بيننا » .

وقال السائق : « هذا واضح » .

وعندما عاد الرجلان إلى مكتب ماكدونالد كان فلتشر واقفاً يتطلع إلى صور الأشخاص التى وضعت فى براويز وعلقت على الحائط ، وتفصل بينها مسافات متساوية .

« أرجو أن تخبرنى بأسماء هؤلاء ياسيدى . فأنا أريد أن أعرف إن كانوا مهمين ويستحقون وضع صورهم هنا » .

وقال المدير : « بالتأكيد ، ولكن زميلى هو الذى يستطيع أن

يخبرك بذلك » . واقترب سائق « قطار الهروب السرى » من أول صورة ، وكانت لرجل أبيض ، قائلاً . « هذا هو سيث كونكلين : تطوع ورحل إلى الجنوب حتى ينقذ زوجة عبد هارب وأطفاله ، ولكنهم قُبِض عليهم وعُثِر على سيث كونكلين ميتا والسلاسل حول معصميه وقدميه وقد شج رأسه » .

كان صوت سائق « قطار الهروب السرى » خالياً من الانفعال تماماً كأنما يقرأ قائمة عادية بالأسماء . ثم أشار إلى صورة أخرى لرجل أبيض وقال : قُبِض على الكابتن لى وهو يجدف فى قارب صغير اختبأ فى قاعه أربعة عبيد ، فحُوكِم وأُدين وحُكِم عليه بأن يجلد خمس جلدات يومياً لمدة عشرة أيام قبل أن ينقل إلى سجن ريتشموند ليقضى عقوبته وهى خمس وعشرون سنة . لكنه مات فى السجن » .

وقال أمام الصورة التالية وكانت لرجل أسود : « هذا الزنجى الحر هو روبرت بيرفيز ، وقد اشترك مع غيره من دعاة إلغاء الرق فى إنشاء « لجنة الرعاية » عام ١٨٣٨ » . وقال عن الصورة المجاورة ، وكانت لرجل أبيض : « إننا نطلق على الكوكرى ليفاى كوفين لقب رئيس « قطار الهروب السرى » ، فقد ولد فى عام ١٧٨٩ فى ولاية كارولينا الشمالية - وهى الولاية التى تنتمى أنت إليها - حيث شهد وأبغض القسوة على العبيد ، ثم انتقل إلى ولاية إنديانا عام ١٨٢٦ ثم رحل منها فى عام ١٨٤٧ إلى سنسناتى حيث أعان من مقر إقامته مائة عبد على الهرب كل عام » .

وكانت الصورة التالية لامرأة سوداء : « إنها هاريت تابمان التى هربت ثم كرست حياتها كلها للعودة إلى الجنوب المرة بعد

المرة لمساعدة الآخرين على الهرب ، وقد تخطى عددهم الآن مائة هارب ولذلك تُعرف بأنها «موسى» قومها» .

ونقر مدير «لجنة الرعاية» بأصابعه على باقى الصور المعلقة فى البراويز مكتفيا بذكر الأسماء : «توماس غاريت ، هنرى بيب ، وليام سبتيل .» ثم نظر إلى فلتشر وقال : «قلت لنا إنك تعرف هذا ! إنه فريدريك داجلاس» .

وتوقف ماكدونالد عن الحديث ، ثم قال لفلتشر : «نود أن نخبرك قبل أن ترحل أنك تخلط بين مؤسستينا» .

وبدت الحيرة على وجه فلتشر : «كيف يا سيدى» .

«ينحصر عملنا فى «لجنة الرعاية» فى توفير الأغذية والملابس والمساعدة القانونية وبعض النقود لضرورات الحياة للعبيد الذين نجحوا فى الهرب إلى الشمال» ، ثم أشار إلى سائق «قطار الهروب السرى» قائلا : «يجب أن أعرفك بزميلى هذا» .

«إننى كلاى مارلون كبير سائقى «قطار الهروب السرى» وأنا أعمل مع السيد ماكدونالد فى تعاون وثيق» .

والتقت عينا فلتشر بعينى رئيس السائقين ، وقال : «تشرفت يا سيدى» .

وقال كبير السائقين : «أهلاً بك ومرحبا !» ثم شد على يده بقوة .

وتطلع كبير السائقين إلى فلتشر بعناية ثم قال : «دعنى أؤكد الرسالة التى تحملها هذه الصور أيها الشاب . إن عملنا لا يتضمن

أى مغامرات مما يقوم به طلبة المدارس . كما أن كونك عميلاً أبيض لا يهيىء لك الحماية أو يعفيك من المعاملة الوحشية التى يلقاها أشد العبيد الهاربين سواداً . إذ كان لنا عملاء تعرضوا للضرب والتعذيب والقتل . صدقنى » .

« نعم يا سيدى » .

وتطلع ماكدونالد مرة ثانية إلى ساعته ، وقال : « إيها الشاب إن سعادتنا بك أكبر مما توقعنا ، وسوف نتصل بك إذا احتجنا إليك أو حين نحتاج إليك » .

ولم يعد رئيس سائقى « قطار الهروب السرى » إلى الحديث عن فلتشر إلا فى الاجتماع الذى عقده فى منتصف أكتوبر مع مدير « لجنة الرعاية » لمدينة فيلادلفيا .

« كان من الطبيعى أن نعرف المزيد عن ذلك الشاب . وقد جاءتنا المعلومات الآن من صديق لنا فى إدارة الكلية . ومع أن إجاباته ليست حاسمة فقصة الشاب فلتشر راندول ـ فيما يبدو ـ صادقة » .

وقدم إليه ورقة مطوية قرأها ماكدونالد بسرعة ، وقال : « تبدو مقنعة لى » .

« إننى أصدقه . بل إننى أحبه » .

« ما يزعجنى هو قيامه بهذه المهمة فى هذه السن الصغيرة ، فإذا قبض عليه ـ »

وبدت على كبير سائقى « قطار الهروب السرى » أمارات الجد والصرامة وهو يقول : « بل إن لدىّ مهمة له . مهمة خاصة جداً » .

وشرح تلك المهمة بسرعة إلى ماكدونالد الذى زفر زفرة عميقة ، فأردف مارلون قائلاً : « والآن .. ما رأيك ؟ »

وتردد ماكدونالد لحظة ، ثم قال : « رأيى أن ترسل إلى عميلك الجديد وتطلب منه الحضور هنا صباح السبت القادم » .

وكما توقع الرجلان حضر فلتشر فى الموعد وقد غمره التوتر . لم يكن قد أفاق بعد من الصدمة التى تعرض لها يوم الأربعاء السابق عندما كان يسير على أحد أرصفة الحرم الجامعى فأحس برجل يسير قريباً منه ويتبعه خطوة بخطوة . ثم سمع الكلمات التالية التى كانت واضحة رغم صوته الخفيض . « احضر صباح السبت إلى مكتب فيلادلفيا . هل هذا واضح ؟ »

وكاد فلتشر أن يتعثر من تأثير المفاجأة ، ولكنه تمكن من الإجابة فى صوت شبه مكتوم قائلاً : « نعم » وعندها استدار الرجل وعاد أدراجه ، بل إن فلتشر لم يستطع أن يبصر وجهه على الإطلاق . ولكن الحادثة أكدت ما قيل له من قبل وهو أنه قد تطوع لأداء عمل بالغ الخطورة .

وكما توقع فلتشر ، وجد كبير سائقى « قطار الهروب السرى » فى انتظاره مع مدير « لجنة الرعاية » . وبمجرد أن أدخله الكاتب ، الذى يضفى على نفسه أهمية خاصة ، إلى المكتب أشار المدير

إليه بأن يجلس على كرسى قائم بجوار المكتب الذى وضع عليه لوح من الورق الأبيض المسطر وقلم ودواة للحبر .

وقال كبير سائقى «قطار الهروب السرى» : «فلتشر راندول! الآن سأملى عليك ببطء ووضوح عهد عضوية «قطار الهروب السرى» . لا تتعجل بل أكتبه بوضوح بخط يدك» .

«نعم يا سيدى» .

ولم يكن العهد يزيد على صفحة واحدة . وعندما انتهى فلتشر قال مارلون : «أضف توقيعك الكامل تحته إذا أردت» .

وبعد توقيع فلتشر ، أخرج مارلون صحيفة صغيرة وضعت بها قطعة قماش مطوية مبللة بالحبر الأسود وقال له : «إبهامك الأيمن من فضلك ؟»

وتناول كبير السائقين إبهام فلتشر فضغطه على قطعة القماش ثم على الورقة إلى الشمال من توقيع فلتشر بحوالى سنتيمتر واحد . وعندما رفع فلتشر يده بدت بصمة الإصبع السوداء واضحة . ثم قدم له ماكدونالد قطعة قماش أخرى مبللة بالكيروسين ، وأخذ الرجلان يتطلعان إليه وهو يزيل الحبر من إبهامه كأنما لا يعرفان من منهما سيبدأ الحديث ، بل كان الاثنان يتساءلان فى نفسيهما عن استجابة فلتشر حين يدرك أن المهمة التى سيكلف بها ذات صبغة شخصية إلى حد لم يكن ليتصوره .

وبعد أن أزال الحبر تقريباً من إبهامه تطلع إليهما معاً . وخاطبه السائق مارلون أولاً : «عادة ما يُمنح المجندون مهلة طولها أسبوع من توقيع العقد لإعادة النظر ـ» .

وقاطعه فلتشر بحدة قائلاً : «لن أحتاج لذلك .. » .

« سأتحدث إذن بصراحة تامة »ـ ونظر كبير سائقى « قطار الهروب السرى » إلى فلتشر نظرة حادة وقال : « أتشعر أنك قادر على تولى مهمة فى منطقة موطنك الأصلى نفسها ؟ مهمة إنقاذ العبيد من الزراع الذين تعرفهم شخصياً ؟ »

وابتلع فلتشر لعابه بصعوبة وقال : « نعم يا سيدى » .

« لا بأس إذن . لقد قررنا المقامرة بك . هذه المهمة هى هروب جماعى خططنا له زمناً طويلاً ولكن عميلنا الأساسى أصيب بمرض فى الأسبوع الماضى ولن يستطيع الاستمرار ، وإذن سوف تحل محله . هل انتهيت من الإعداد لعطلة عيد الميلاد الدراسية ؟ »

« نعم يا سيدى . ثلاثة أسابيع كاملة ـ من عطلة نهاية الأسبوع الأولى فى شهر ديسمبر حتى يوم الاثنين الأول فى العام الجديد » .

« عظيم ! »

ونهض كبير السائقين مارلون كأنما ليهم بالرحيل وقال : « لابد أن أسرع بالخروج ـ مع الأسف ـ إذ أننا نتوقع وصول عدد من الهاربين عند الظهر » . وصافح فلتشر ثم أضاف : « أرجو أن تحضر إلى هنا فى نفس الوقت فى الأسبوع القادم . وعندها سوف أطلعك على التفاصيل الكاملة لمهمتك » .

« نعم يا سيدى » .

وتحدث مدير « لجنة الرعاية » بسرعة قائلاً : « وغنى عن البيان أننا سنبتهل من أجلك ونبارك خطواتك ونساندك بكل السبل المتاحة للبشر » .

« شكراً لك يا سيدى » وتردد فلتشر ، ثم نظر إلى كبير سائقى « قطار الهروب السرى » قائلاً : « أفلى أن أسأل سؤالاً آخر يا سيدى ؟ »

« طبعاً طبعاً .. تفضل .. »

« ذكرت أننى سأحل محل عميل رئيسى . فهل يعنى هذا أننى سأعمل وحدى تماماً ؟ »

ونظر كبير السائقين مارلون إلى فلتشر ، وقال : « هل أنا أخوك ؟ »

« عفواً يا سيدى - لا أفهم ! »

وردد المدير ماكدونالد نفس العبارة : « هل أنا أخوك ؟ »

وتطلع فلتشر إلى الرجلين فى حيرة . وعندها قال كبير السائقين : « إذا سألك أحد هذا السؤال ، مستخدماً نفس الألفاظ فاعلم أنه السائق الموثوق فيه لدينا ، والذى يعمل بصفة دائمة فى المنطقة التى ستنفذ فيها المهمة . وسوف تعمل بالتعاون الوثيق معه ، وتجمع بين قدراتك الخاصة وقدراته إلى أقصى حد ممكن . ومع أننا نثق فيك - كما هو واضح - فأرجو أن تقدر أننا مضطرون - لدوافع الأمن الكامل - إلى إخفاء شخصيته حتى تقابله وجهاً لوجه . وعندما يحدث ذلك - صدقنى - ستعرف السبب » .

وقام مدير « لجنة الرعاية » وكبير سائقى « قطار الهروب السرى » بالشد على يد فلتشر راندول - ولكن فلتشر لم يشأ أن يذكر لهما أن اليوم هو عيد ميلاده العشرين .

الفصل الخامس

كان موسى العجوز فاحم الوجه غليظ الجسم ، وقد ساعد سيده وسيدته في شتى الاستعدادات لاستقبال فلتشر - ابنهما المحبوب - عند عودته إلى المنزل لقضاء عطلة عيد الميلاد عام ١٨٥٥ . وكان فخوراً كل الفخر أيضا بتكليفه شخصياً باستقبال « السيد الصغير » في المحطة عند وصوله - ولهذا كله كان يغمره الحماس والزهو وهو يقود العربة التي تجرها فرستان أصيلتان في الممر الذي تنتصب الأشجار على جانبيه ، والذي يؤدي إلى المبنى الرائع القائم على أعمدة بيضاء ، فأخذ يضرب مؤخرتي الفرستين ذواتي اللون البني بأطراف اللجام فأنطلقتا تركضان بسرعة جعلت فلتشر يقفز فجأة مع حقيبتيه في المقعد الخلفي .

كانت العربة المسرعة ماتزال بعيدة عن المنزل ، إذ كانت قد بدأت تدور في المنحنى الواسع للممر ، عندما لمحتها ماندي ، الخادمة المخلصة الخاصة بسيدة المنزل والمختصة بالطابق العلوي ، فصاحت : «سيدي سيدي! سيدتي سيدتي!» كانت ماندي قد قضت الساعتين المنصرمتين في الشرفة الأمامية وقد ارتدت ثياباً ثقيلة لتحميها من البرد ، في انتظار اللحظة التي تنادي فيها على السيد والسيدة عند رؤية فلتشر . وها هي قد كوفئت على صبرها !

وأطلق موسى العجوز صيحة مدوية أبطأت من ركض الفرستين المندفعتين ، فتهادت العربة فى الممشى المنحنى الذى يمتد أمام المبنى وسط بساط الكلأ السندسى الذى تنمو فيه الزهور وتحيطه أسوار النباتات المتسلقة . ولكن فلتشر لم ينتظر وقوف العربة بل قفز منها بين أحضان والديه اللذين عانقاه بشوق بالغ . كانا يحبانه كل الحب ويفخران به كل الفخر ، وقد برح بهما الشوق إلى رؤيته ثانياً فأقبلا يعانقانه بلهفة عدة دقائق! ولم يكد يفرغ من احضانهما حتى تلقته الأحضان المحمومة ، وقبلات الخد الملتهبة ، وتقاذف أيدى عبيد المنزل الكبيز موضع ثقة الجميع - ماندى ، جوهرة أمه الخاصة ، وليزا ماى ، خادمة الطابق السفلى التى تقدم الطعام على المائدة ، وميلا التى تغزل وتحيك الثياب ، والمنحدرة من أب أبيض وأم سوداء ، والتى حاكت قمصانه وقمصان أبيه ، وبيتر - البستانى ، وكايرو - المشرف على الاصطبل ، وبطبيعة الحال موسى العجوز . وقد انتظروا جميعاً أدوارهم فى الترحيب بفلتشر بعد أن تفرغ منه الطاهية هاتى - وهى كبيرتهم المعمرة التى لاتهرم أبداً .

وخلال فورة التحيات والترحاب لم يكن أحد ليلاحظ ما إذا كان فلتشر قد صرخ معبراً عن المشاعر المتناقضة التى استولت عليه فجأة . قالت هاتى التى تولت رعايته فى طفولته : «آه يا ربى! لكم كبرت واكتسيت جمالاً ! ولقد سمع الله دعائى فعدت إلى المنزل فى الوقت المناسب للعشاء !» وضحكت هاتى ضحكة زهو مجلجلة ، تبعتها ماندى قائلة بصوت حاد : «لقد قضت هاتى ثلاثة أيام فى إعداد عشائك يا سيد فلتشر !» كان فلتشر قد قطع على نفسه عهداً

حاسماً بأن يساعد العبيد على نوْل حريتهم ، ولكن بدا له الآن أن هذا العهد لا ينطبق على هؤلاء ، بل لاشك أنهم سيرفضوه إذ يعتبرون أنفسهم أعضاء مخلصين فى أسرة المنزل الكبير . وأحزن فلتشر خاطر طاف برأسه : لو علم هؤلاء بمهمته لاعتبروه خائناً !

وكما جرت عليه التقاليد ، تلا عضو مجلس الشيوخ دعاء المائدة قبل تناول العشاء ، وقد تضمن الدعاء هذه المرة الشكر لله الكريم على جمع شمل الأسرة بعد الفراق الطويل . وبعد ذلك أتت ليزا ماى إلى فلتشر بوعاء لامع مغطى ، وعندما رفع الغطاء انفجر ضاحكاً إذ تذكر صباه وساعات الصباح فى الخريف والشتاء ! كم من مرة استيقظ على نفس الرائحة الرائعة فارتدى ملابسه فى عجلة ، وأهرع يهبط السلم دون توقف متجها نحو مطبخ العجوز السوداء هاتى فى الجانب الخلفى من المنزل ، حيث تقدم له نفس هذه الأرغفة الصغيرة المستديرة التى خرجت لتوها من الفرن ، بعد أن تضع عليها الزبد .

وأثبتت الأطباق التى تلت ذلك قدرة هاتى الفائقة على تذكر الأصناف التى يحبها فلتشر . كان طبق الدجاج المقلى المزين بصلصة البصل يتنافس مع طبق الأرانب المطمورة فى الطاجن ، وكانت فطائر السجق تتبارى مع حلوى الذرة المشوية وفطائر البطاطا ، بل إن طبق الخضراوات الطازجة الذى تزينه صلصة اللفت كان يتحدى طبق البازلاء الدكناء المغموسة فى الزبد . وأخيراً أتت ليزا ماى بالحلوى إلى المائدة - وهى لا تستطيع مغالبة سرورها المرسوم على وجهها للنجاح الذى أصابته

الوجبة ! وكانت فطيرة يعجز اللسان عن وصفها : محشوة باللوز وتخفيها عن الأنظار تماما طبقة سميكة من الكريمة المخفوقة المحلاة بقليل من السكر .

وعندما سأله أبوه مبتسما ، وهو يتناول ملء شوكة من البازلاء الدكناء : «قل لنا إذن أيها الطالب كيف تسير الحياة فى الكلية !؟» أجابه فلتشر بارتياح : «بالنسبة للكلية نفسها يا أبى ، أراها جديرة بكل ثناء ، وإذا كان فى كلية ييل وكلية هارفارد أقسام متخصصة متميزة ، فلدينا فى برنستون مثلها ، وبصفة عامة لا يوجد أفضل منها » .

ووضع فلتشر بعض الزبد على خامس رغيف خفيف وقال : « أكبر مشكلة أواجهها هى تلك التى ذكرتها لك عندما عدت للمنزل فى عطلة عيد الميلاد الأخيرة ـ وأقصد بعض الملاعين الشماليين ـ »

ورأى أباه وهو يتوقف عن المضغ لمجرد ذكره كلمة « شمالى » . ولما كان يعرف مدى الاطمئنان والسعادة التى يمكن أن يدخلهما على قلب أبيه ، فقد انخرط فلتشر فى سب معظم الشماليين الذين عرفهم معرفة شخصية ، وانهال بشتائمه بصفة خاصة على توم باريت ، وبيتر إستابروك ، وإدجار أسكوت ووليام جينز .

وابتسم عضو مجلس الشيوخ ـ راندول ـ وأومأ إلى زوجته قائلاً : « أترين ياحبيبتى؟ لنا أن نفرح ونتفاخر بأننا قد كسبنا المقامرة ! بل ينبغى على الجنوب أن يقامر ويزيد من عدد الطلبة

الذين يدرسون فى كليات الشمال ، فهم قادة المستقبل وعليهم أن يدرسوا ويتعلموا شتى أساليب وحيل الشماليين » .

وانحنت الأم حتى تلمس يد فلتشر قائلة : « إن ما يسرنى حقا هو عودة ابننا إلى المنزل! هل تدرس بعض المواد غير التى ذكرتها فى خطاباتك ؟ »

وقال فلتشر : «لدينا مادة أكن لها حبا خاصاً واسمها فلسفة الأخلاق.» ورأى حاجبى أمه يرتفعان دهشة فأضاف : « أظن أنها أشبه ما تكون بالمبادىء الأساسية للحياة وفقا لتعاليم المسيحية » . وبدا على أمه الانبهار قائلة : «نعم نعم .. أدرك ذلك » . فاستمر يقول : « المؤكد أن أستاذ هذه المادة هو أحب الأساتذة إلى قلبى فى برنستون : اسمه الدكتور س . إريك لنكون ، وهو من الجنوب أيضا - من مدينة ممفيس . لقد قرأت سيرة حياته فى المكتبة ، ولقد درس على يدى أستاذ شهير من انجلترا اسمه الدكتور هامدن - فى أكسفورد » .

وابتسمت أمه قائلة : «كم يسرنى أنك مازلت تعشق المكتبة » . ورفع فلتشر يده إلى رأسه تحية لأمه وقال مداعباً : «ترى من السبب ؟ هل هى من تأثرت بها طول عمرى ؟ »

وضحك الثلاثة ، ثم وجد أبوه أن المحادثة قد تجاوزته فى اللحظات السابقة فأثار موضوعاً أقرب إلى اهتماماته قائلا : « ألا تصف لى يا فلتشر .. المناخ السياسى فى الكلية ؟ » وضحك فلتشر ، وقرر أن يتفادى الإجابة على هذا السؤال ، فقال : « إن نشاطى السياسى ينحصر تقريبا فى مدرسة البنات التى تقع فى آخر الشارع ! »

وقهقه أبوه وقال : « نصيحتى أن تتجنب ما أتجنبه أنا ! »
وعلقت الأم قائلة : « هذه حرية أكثر مما ينبغى ! » ثم ضغطت على الزر الصدفى الذى يعلو جرس المائدة الفضى فرن بصوت مجلجل يستدعى ليزا ماى التى أتت مهرولة إلى قاعة الطعام ، فقالت لها : « تعالى معى إلى غرفة المعيشة لنفتح زجاجات النبيذ ونرتب الأشياء حتى نواصل الحديث هناك » .

وهب راندول واقفا ليسحب الكرسى الذى جلست عليه أمه ويساعدها على النهوض ، وبعد أن خرجت انحنى الأب ليقترب من ابنه وقال هامسا : « لقد كبرت يا بنى ، وأنا أدرك هذا ، ولكننى سأقدم لك نصيحة مخلصة على أى حال ! إذا شعرت بالحاجة إلى « الشقاوة » فابحث لك عن فتاة حلوة مختلطة النسب أو سمراء ، ولو كلفتك خمسين أو خمسة وسبعين سنتا ! فلقد سمعت أنهن ملتهبات مثل الصواريخ ، ولاشك أن انحلالهن فى الشمال لا يقل عن انحلالهن فى الجنوب » وغمز بعينه إلى فلتشر وأضاف : « أعنى أن تؤجل العلاقة الجادة حتى تتزوج » .

وطافت فى ذهن فلتشر صور العديد من الفتيات ذوات النسب المختلط بين الأسود والأبيض ، وإن تفاوتت نسبة الدم الزنجى إلى دم الجنس الأبيض فيهن من الربع إلى الثمن ، وصور السمراوات اللائى رآهن على المنصة فى فيلادلفيا - ممن هربن من الرق منذ فترة وجيزة - واللائى شهدن بأنهن قد انحدرن من صلب مالكيهن ، وإن كانت بشرتهن القمحية تغنى عن تلك الشهادة ! وكان قد تأمل طويلاً هذه الظاهرة فى غرفته بالمسكن الجامعى ، وتأمل مايسمى « بالمؤسسة الأبوية » التى يخرج الآلاف منها إلى الوجود كل عام

ليواجهوا -رجالاً ونساءً- مصيرهم اللعين، فلونهم شبه أبيض ومنزلتهم منزلة العبيد.

وعندما عادت والدة فلتشر إلى باب الغرفة تدعوهما -وقد ارتسمت على شفتيها بسمة- إلى غرفة المعيشة، قال فى نفسه إن الألم الذى كابده عندما أدار ظهره لطيبة الكوكريين وكرمهم لايقارن بالعذاب الذى يعانيه الآن، وقد عاد إلى أبويه اللذين وهباه الحياة -حتى يخونهما!

وتذكر بوضوح ذلك التعبير الجاد الذى ارتسم على وجه كبير السائقين مارلون فى فيلادلفيا، وهو يعطى الأوامر النهائية إلى فلتشر حتى ينقلها إلى زميله العميل الذى لم يتعرف عليه بعد، إذ قال:

« إننا لا نقدم أوامرنا كتابة وعليك أن تصغى بعناية.احفظ ما أقوله عن ظهر قلب ثم أعده علىّ عندما أنتهى. فى مقاطعة « آش » سوف تضم براعتك إلى براعته، ودهاءك إلى دهائه، وعلمك بالمنطقة إلى علمه لتمكين اثنى عشر عبداً من الهرب-ستة منهم على الأقل من مزرعة أكبر مالك للعبيد فى المنطقة، عضو مجلس الشيوخ راندول» . ونطق « السائق » الاسم بطريقة تقريرية خالية من الانفعال، تقبلها فلتشر دون أن يجفل. « لابد أن تتأكدا من تأمين مرور هذه المجموعة من طريق الغابة الكثيفة فى وقت يسمح بوصولها قبل الفجر إلى مقر « مستودع » « ناظر المحطة » الكوكرى إيفانز. ولابد أن تخبرا المجموعة مقدماً أن إيفانز سوف يوصلهم إلى عميلنا التالى حتى يصحبهم إلى الكهوف

الحجرية عند أبالاتشيان فى نفس المنطقة حيث يختبئون أثناء النهار ، ويواصلون رحلتهم ليلاً مهتدين بالنجم القطبى حتى فيلادلفيا » .

وقد أعاد فلتشر هذه التعليمات عدة مرات حتى اقتنع مارلون أنها قد حفرت فى ذاكرته ولن تنمحى أبداً . وحدق السائق مارلون فى عينى فلتشر وقال : « إن هذا الأمر يخص والدك بالتحديد ولابد أن تقول لى إن كانت لديك أى تحفظات » .

وسمع فلتشر صوته وهو يقول : «لقد قطعت عهداً بأن أتبع الأوامر ياسيدى » .

وقال مارلون : « أدرك أن فى هذا تحدياً رهيباً لمجند جديد .. إنها مسئولية كبيرة ، ولكننى أومن بقدرتى على فهم البشر ، وأعتقد أنك أهل لهذه المسئولية . وأدرك أنك لست صبيا بل رجل . وهذا ما أعوّل عليه » .

كان فلتشر يتوقع أن تكون الأوامر أكثر تفصيلا وتحديداً ، ولكنها تركت له هو ورفيقه العميل الآخر حرية ابتداع ما يراه من حيل وسبل ، وعندما تأمل عدد المتغيرات التى يمكن أن تصادفها تلك المهمة أدرك السبب فى موقف السائق مارلون ، كما استمد الجرأة من إيمان ذلك الرجل به .

وبينما هو فى طريقه إلى موطنه لقضاء عطلة عيد الميلاد ، أدرك فلتشر أنه مجرم . كان إعلانه اعتزام خرق قانون البلاد يعرضه للقبض عليه والاتهام والإدانة والسجن - أما إذا قبض عليه أحد مطاردى العبيد من الغلاظ الأشرار الذين يستأجرهم ملاك

العبيد (مثل أبيه) فمن المحتمل أن يقتل.

وعندما دخل إلى غرفة معيشة الأسرة الفاخرة رأى نسخة مجلدة من رواية «**قلب ميدلوثيان**» من تأليف السير والتر سكوت على إحدى المناضد. كانت أمه تعشق كتابات سكوت جميعها عشقاً مشبوباً ودون تمييز، شأنها شأن الكثيرين من أهل الجنوب. وتذكر أنها كانت تقرأ له روايات سكوت فى طفولته. وكانت تفضل «قلب ميدلوثيان» على ما عداها من روايات سكوت بسبب شخصية فيها تستهويها هى شخصية جينى دينز-فتاة من البسطاء تتحلى بالشجاعة والايمان العميق دون تظاهر زائف. وكانت أمه تجد فى هذه الصفات مصدر إلهام لها.

وأحس فلتشر بيد والدته وهى تمس ذراعه برفق وتقول له بصوت حانٍ ينم عن القلق: «تبدو لى ياحبيبى أحيانا شارد اللب، ونحن نعرف أنك مرهق من السفر وتحتاج إلى الراحة. حاول أن تتحملنا بعض الشىء ياحبيبى، وأن تدرك أننا قد غرسنا هنا فى هذه المزرعة الكبيرة حيث لا يحدث شىء، بينما يقضى والدك نصف حياته فى المجلس التشريعى. ولهذا فكلانا يتعطش لمشاركتك بعض تجاربك فى الغربة-فى الكلية!»

وانتفض فلتشر إذ لم يكن يتصور أن شروده كان واضحاً إلى هذا الحد، فجمع أطراف ذهنه ليقدر على التركيز، واحتضن أمه وضحك قائلاً: «نعم .. لاشك أن الرحلة الطويلة قد هدتنى-» ثم وضع يده على بطنه قائلا: «كما أننى التهمت ضعف طعامى المعتاد على الأقل!»

وتقبلت والدته ما قاله ثم جلس الجميع وأمامهم أقداح النبيذ التى قدمتها ليزا ماى، فعادت أمه إلى الحديث قائلة : «قل لنا ياحبيبى كيف تقضى عطلات نهاية الأسبوع».

وقال فلتشر إنه عادة ما يقوم وحده برحلات فى الحقول لتوسيع خبراته الشخصية وإثرائها، وأحس أنه لم يكذب عندما تحاشى ذكر الكوكريين، أو الإشارة بكلمة واحدة إلى مدينة فيلادلفيا.

وبعد أن أطلقت عليه أمه وابلاً من الأسئلة التى ادخرتها له، رآها تغالب التثاؤب فانحنى إلى الأمام قليلاً وموج التوتر والإثارة يعلو فى اسلوب حديثه وصوته المتهدج وقال : «عندما كنت فى برنستون خطرت لى فكرة - أعنى - لدىّ فكرة رائعة! لماذا لا نعقد حفلاً يختلف عن كل ما سبقه عشية عيد الميلاد المجيد - حفلاً يصعق الجميع له! فليكن حفل شواء ضخم، يصحبه احتفال صاخب بعودتى إلى المنزل!»

كان واضحاً أنهما لم يفهما مرماه. كان يدرك أن انتخابات مجلس الشيوخ فى الولاية على الأبواب، وأن أباه - رغم اطمئنانه إلى النتيجة - يسعده أن ينتصر مرة أخرى انتصاراً ساحقا! وهكذا شرع فلتشر فى سرد تفاصيل خطته مؤكدا أن حفلة عودته إلى المنزل عشية عيد الميلاد سوف تخفى فى ثناياها حيلة سياسية فعالة ودرامية إلى أقصى الحدود، وأضاف قائلا : «أعنى أنه إذا انطلق موسى العجوز وبيتر وكايرو على ظهور الخيل لتوصيل

الدعوات فسوف نضمن أكبر حفل اجتماعى هذا الموسم ، ونضرب فى ذات الوقت ضربة ناجحة فى حملة الدعاية لإعادة انتخاب أبى عضوا فى مجلس الشيوخ ».

وهب عضو مجلس الشيوخ واقفا فى كرسيه وقد ابتلع الطعم مثل قرموط جائع وصاح : « باهر عظيم رائع ! » ومضى إلى فلتشر وضربه على ظهره فى إعجاب ! أما نبرات والدته فكانت أقل ثقة واطمئنانا ، إذ قالت : « ولكن لا يفصلنا عن عيد الميلاد سوى اسبوعين فقط! وليس أمامنا من الوقت ما يكفى لترتيب كل شىء ! »

وصاح عضو مجلس الشيوخ : « سوف ننجح فلا تقلقى ! فى محلج القطن قماش يكفى لتغطية شرفتنا الكبيرة ، كى تصبح سرادقا مقاماً على اعمدة ، وسوف ندفئها بالمواقد الصغيرة أيا كان عددها ! بل سيكون الأمر يسيرا إلى أبعد الحدود ! واضمن لك أنه لن نجد فى الدنيا أمهر فى إعداد الشواء من هاربن جون . إنه أمهر الناس هنا كما تعلمين ! »

وقالت الزوجة : « لا بأس إذن ما دمت متأكداً . »

« بل متأكد إلى أبعد حد يا حبيبتى ! أما مهمتك الآن فهى إعداد قائمة خاصة تتضمن الوجهاء والأعيان فقط ! »

وردت الزوجة قائلة : « سوف أبذل قصارى جهدى لاشك . ولكن أرجو أن تذكرا أن حفلة الشواء هذه ـ حفلة من تدبير غلامين عنيدين كبيرين ! »

وكلما تخيل عضو مجلس الشيوخ صورة الحفلة ازداد حماساً

وانفعالاً ، فأشار إلى فلتشر بأصبعه قائلاً : «ليس لدينا وقت يا بنى . بمجرد ان تصحو غداً اتجه إلى منزل توم جريفز - واستأجر منه عبده هاربن جون - صانع الشواء - طوال فترة عيد الميلاد . لابد انك سمعت عنه ! إنه الذى يعزف موسيقى السود فى كل مكان على الهارمونيكا !»

ودخلت الخادمة ليزا ماى غرفة المعيشة تحمل صينية مثقلة بأقداح القهوة والسكر واللبن .

وقال فلتشر : «لا اذكر أنى سمعت عنه» فردت أمه قائلة : «لقد قضيت السنوات الماضية ما بين المدرسة والكلية بعيداً عن المنزل معظم الوقت منذ أن كنت فى الرابعة عشرة» . وتثاءبت تثاؤب المقبل على النوم حقا ، فانتصبت واقفة وقالت : «لن أستطيع التمتع بالقهوة يا ليزا ماى بسبب النعاس الذى حل بى بعد تناول هذا المشروب» ثم التفتت إليهما وقالت : «أرجو أن تسمحا لى - أيها الرجلان القويان الكبيران - أن أصعد إلى الطابق العلوى وانال قسطا من الراحة» وانحنت بصورة تمثيلية ساخرة لتحيتهما وأضافت : «يبدو أننا ابتداء من الغد سوف نشهد أياماً طويلة من العمل الشاق!»

ورد عليها زوجها وابنها بانحناءات رسمية مماثلة ، فابتسمت وهى تبتعد ثم اختفت عن أنظارهما فى اتجاه الطابق العلوى .

وذهب عضو مجلس الشيوخ إلى المائدة المستطيلة المصنوعة من خشب البلوط المصقول حيث وضع النبيذ ، فأفرغ لكل منهما قدحاً آخر وأشار بظهر يده إلى ليزا ماى فانطلقت تعدو .

وتناول فلتشر قدح النبيذ قائلا : « شكراً يا أبى ».وبعد هنيهة أضاف : « لقد تكلمنا كثيراً عن أحوالى .. لماذا لا تحدثنى عن الأحوال هنا فى بلدنا ؟ »

ورشف عضو مجلس الشيوخ قطرة من قدحه قبل أن يجلس جلسة استرخاء فى مقعده . ثم رشف قطرات أخرى وقال : « بصفة عامة .. لا بأس بالأحوال هنا فى الواقع ! فقد جنينا محصولاً وفيراً . أقصد محصول القطن ومحصول التبغ أيضاً » . وبعد أن رشف قطرات أخرى قال عضو مجلس الشيوخ : « وقد تحسنت أسعار شراء العبيد إذ ازداد العرض عن الطلب . ففى هذه المنطقة يمكنك أن تشترى عبداً نافعاً بأقل من ألف دولار ، وقد اشتريت فى الأسبوع الماضى إحدى الحوامل القادرات على العمل بأقل من هذا المبلغ » .

وقال فلتشر : « هكذا ! » ولم يلاحظ أبوه إجفاله .

وتحمس عضو مجلس الشيوخ للحديث فى الموضوع فقال : « مازال الشماليون الملاعين يمثلون مشكلة الجنوب الكبرى ! لكأنما لا يكفيهم أن يدفعوا أبخس الأسعار للعرق والجهد المبذول فى منتجاتنا الزراعية ! إن هؤلاء الحقراء من مخلوقات الله قد أنتشروا فى أرجاء المنطقة ، وهم يلجأون إلى شتى حيل التخفى ، عاملين بمختلف المهن ، وهم فى الحقيقة أعضاء فى منظمة تناهض الرق بل فيما يطلقون عليه « قطار الهروب السرى » ! تخيل يا بنى أنهم قد أفسدوا بعض أهل الجنوب من البيض الذين تلقوا أفضل تربية ممكنة ! »

وافرغ فلتشر وأبوه فى جوفيهما ما تبقى فى قدحى النبيذ من قطرات، ثم صب كل منهما قدحاً أخرى. كان عضو مجلس الشيوخ قد ألهبه الحماس فاستمر يقول: «لابد أن يدرك الشماليون أن الجنوب لم يعد يحتمل اختطاف ممتلكاته من العبيد - ممتلكات تزيد قيمتها عن مئات الآلاف من الدولارات - ونقلهم إلى ما يسمى بالحرية - وليس لدى العبيد بطبيعتهم أدنى فكرة عما يفعلون بهذه الحرية!»

ورشف عضو مجلس الشيوخ رشفة من النبيذ وقال: «اصغ إلىّ يا بنى، فأنا عليم بالأمور إذ استقى الخبرة من جلسات المجلس التشريعى ومتابعتى مايقال. إذا استمر الشماليون فى هذه الحيل القذرة اللعينة فلن تنقضى سنوات أربع أو خمس حتى تنشب حرب انفصال! سيهون على ولايات الجنوب أن تنفصل عن الاتحاد ولايهون علينا التخلى عن عبيدنا!»

وحاول فلتشر تهدئة والده فوجه إليه سؤالاً مباغتا: «أريد المزيد من المعلومات يا أبى عن مالك ذلك المتخصص فى الشواء الذى سأقابله غدا فى الصباح!»

وقال عضو مجلس الشيوخ: «أنت محق يا بنى - لابد أن تعرف المزيد عن مولى ذلك العبد! اسمه توم جريفز، وليس مزارعاً حقيقياً، أى لا يقارن على الإطلاق بالطبقة التى ننتمى إليها، فهو عامل زراعى محظوظ بذل جهداً جهيداً حتى اشترى مزرعة صغيرة - ولا أبخسه حقه هنا - ولكن الحظ ابتسم له حقا عندما اشترى بدولارات معدودة أسرة من العبيد السود، كبر أول أبنائها

ليصبح هاربن جون-وهو أمهر من يصنع الشواء فى هذه المنطقة على الإطلاق ، بل وأمهر من يعزف على الهارمونيكا فى أى مكان فى العالم ! وهكذا فالموقف فى كلمة موجزة هو أنك ستقابل توم جريفز - العامل الزراعى الذى يمتلك العبد - وتعقد معه صفقة استئجار عبده الأسود الموهوب -»

ونهض فلتشر وتمطى قائلا : «عظيم عظيم ! ولكننى سأحتاج إلى النوم ملء جفونى هذه الليلة ! ويبدو أنك فى حاجة إلى الراحة أنت أيضا يا أبى !» ولكن عضو مجلس الشيوخ أدار كأسه فى يده قائلاً : «لا .. اسبقنى أنت يا بنى .. أريد أن أجلس هنا قليلاً لأتأمل تلك الخطة التى وضعتها ! أقسم أنك سوف تصبح سياسياً فذاً يوماً من الأيام !»

وعندما اختلى فلتشر بنفسه فى غرفته ، غلبه الحنين إلى الماضى . كانت البطانية الصغيرة المربعة التى أصابها البلى وحال لونها وتهرأ نسيجها معلقة على شماعة خشبية ، فذكر كيف كان يجرها خلفه أينما ذهب ، وكيف كان يبكى ويصرخ كلما أخذتها هاتى السوداء - وكانت ما تزال شابة - لتغسلها . وكان الدب الصغير الذى تمزق نسيجه وتغير لونه - لعبته القديمة - يجلس وحيدا بائسا مستنداً إلى ظهر مقعد فى ركن من أركان الغرفة وقد تدلت إحدى عينيه البنيتين الزجاجيتين بخيط على صدره . وكانت مضارب البيسبول الثلاثة - مختلفة الأطوال والأحجام - موضوعة بنظام محكم على أرضية الغرفة إلى جوار صوان ذى أدراج وضع

عليه طبق زجاجى أخضر يضم المزيد من تذكارات الطفولة .

وتطلع إلى هذه التذكارات فطافت بذهنه صورة رفيق صباه المحبوب - ابن هاتى الأسود - الذى كانوا يسمونه « الأرنب » بسبب سرعته فى الجرى . كان « الأرنب » فى نفس عمر فلتشر تقريباً ، وكان له منزلة خاصة باعتباره صديق فلتشر مما أنقذه من العمل فى الحقل مع الآخرين .

وكانا فى العاشرة أو الحادية عشرة عندما أصابتهما معاً حمى شديدة . ولا يذكر فلتشر بوضوح وجه هاتى آنذاك ، ولكنه يذكر حبها ورعايتها له ، حين كانت تنحنى لتحسس جبهته بالنهار ، وتضع الخرق المبللة الباردة عليها ليلاً فى ضوء الشموع . وعندما شفى من مرضه أخذوه لينظر إلى صخرة مسطحة مستديرة انتصبت شاهداً فوق قبر « الأرنب » الذى حفر حديثاً فى مقبرة العبيد بالمزرعة .

وتعجب فلتشر فى نفسه إذ لم يخطر له قبل اليوم أن هاتى ربما استطاعت أن تنقذ حياة ابنها لو أنها قضت فى رعايته وقتا أطول مما قضته فى رعاية فلتشر ! ولو عاش « الأرنب » لعمل بالإشراف على الفناء أو الحديقة أو الجرن لأن هاتى الطاهية لديها من النفوذ ما يعفى ابنها من العمل الشاق فى الشمس الحارقة فى حقول التبغ والقطن .

وقال فلتشر لنفسه إن هدفه السرى المحفوف بالمخاطر هو محاولة مساعدة « الأرانب » الآخرين على الهروب إلى الحرية ، وإلى حياة أفضل فى الشمال .

وبعد ساعة فى الفراش، ورغم ارهاقه الشديد، لم يستطع فلتشر أن ينام. وشعر بأن كلمة السر محفورة فى ذهنه. ترى متى سيظهر ذلك العميل الذى سيرافقه فى مهمته؟ ومن تراه يكون؟ إذا كان واحدا من بين المئات الذين ذكرهم أبوه، وقال إنهم يتنقلون فى الجنوب - فكيف يعرفه؟ فمثلا كان الآباء الأثرياء من أصحاب المزارع - يستأجرون مدرسين خصوصيين لأبنائهم، ومعلمين للموسيقى والرقص، من الشمال، ومن أوربا. ومن المحتمل أن يقوم المهرجون والحواة والممثلون الذين يعتمد أسلوب حياتهم على السفر والترحال بالعمل فى «قطار الهروب السرى» دون أن يشك فيهم إنسان.

ثم تذكر فلتشر ما سمعه عن العملاء الذين صادفهم سوء الحظ فألقى القبض عليهم. لقد ماتوا أبشع ميتة. ولم يشك فى صدق ما سمعه ذات يوم، وكان ما يزال طالبا فى المدرسة، إذ عاد إلى منزله لقضاء عطلة نهاية الأسبوع ليجد أن عدداً من العبيد السود قد نجحوا فى الهرب. وتذكر فلتشر كيف انزعج لعمق المرارة والخوف والكراهية فى أحاديث أبيه وغيره من المزارعين الكبار، الذين اجتمعوا فى منزله وأخذوا يحددون ألوان العقاب التى يريدون أن ينزلوها بكل من يقبض عليه، وخاصة من بين البيض، بتهمة مساعدة العبيد على الهرب.

كان فلتشر يبذل قصارى جهده ليقصى عن ذهنه أمراً لا يستطيع مواجهته طائعاً مختاراً - ألا وهو ألم التنكر لحب والديه وخيانة الثقة التى أولياه إياها.

واستلقى على السرير بالعرض، وقال فى نفسه إنه إذا كانت

هذه المعاناة العاطفية قد أقضت مضجعه فى أول يوم يقضيه فى المنزل ، فربما لم يستطع إنجاز مهمته على الإطلاق . وهل من حقه أن يسلك سلوكاً مناقضاً لمعتقدات أبيه وأمه لأنه أصبح يؤمن إيمانا مشبوباً بأن الحرية من حق العبيد السود ؟

وخطر لفلتشر العهد الذى وقعه وختمه ببصمة إبهامه. وتساءل - فى شطحة من شطحات خياله - ماذا يحدث لو أنه أخبر رئيس السائقين مارلون أنه عندما عاد إلى المنزل بعد غياب عام كامل ، وخبر دفء الحياة العائلية مرة ثانية ، أحس بأنه بشر ، وتملكته عوامل الضعف البشرية التى لم يحسب حسابها ، فقرر تغيير رأيه ؟

ألا يمكنه إرضاء « قطار الهروب السرى » بحل وسط - بدلاً من هذه المهمة ؟ ألا يمكنه أن يتبرع فى سبيل تحقيق أهداف تلك المؤسسة بالميراث الذى خلفه له جده لوالدته فى صورة حساب أمانة يؤول إليه عندما يبلغ الواحدة والعشرين ؟ وليس محتوماً أن يُطْلِعَ والديه - فى هذه الحال - على ما اختار أن يفعله بتلك الأموال . وما هو رد الفعل المتوقع من مدير « لجنة الرعاية » ماكدونالد وكبير السائقين مارلون ؟ تراهما قادران على الفهم والصفح ؟

أفلا يكون ذلك هو الموت بعينه ؟

بلى ! لا يمكنه المخاطرة بذلك !

وظل فلتشر مستلقيا بعرض سريره ، يتلوى فى عذاب التردد . وعندما كاد نور الفجر يلوح أحس بشفتيه تتحركان ، تتلفظان

صامتتين بالكلمات التى قالها فريدريك داجلاس والتى حفرت حفراً فى ذاكرته : « لا يتميز غنى عن فقير ، أو رفيع عن وضيع ، أو أسود عن أبيض ... بل بلد واحد وجنسية واحدة وحقوق متكافئة ... ومصير مشترك للجميع » .

ونهض فلتشر من السرير وركع ليصلى . وابتهل فى صلاته إلى اللّه أن تكتمل مهمته دون إزهاق روح واحدة ، ودعا اللّه أن يبارك هذه المهمة حتى تكتمل فلا يخون والديه بعدها أبداً .

الفصل السادس

واستيقظ فلتشر على أصوات الطيور التى لا تهدأ، فاغتسل وارتدى ملابسه وأسرع نازلاً إلى الطابق الأرضى، فعبر الردهة واتجه إلى المطبخ الذى يقع فى الجزء الخلفى من المنزل حيث وجد السوداء العجوز هاتى قد استيقظت من فترة -كما توقع- وأعدت القهوة. وأصر على أن يصب قدحه بنفسه، ثم جلس على كرسى خشبى، أسند ظهره إلى منضدة الطهى، وقال لهاتى: « أريد بيضاً ولحماً بأسرع ما يمكن، فلابد أن أنطلق لأرى مالك رجل نريد أن نستأجره اسمه هاربن جون ».

وعلى الفور بدأت هاتى فى قلى شرائح اللحم السميكة فى طاستها السوداء الثقيلة المصنوعة من حديد الزهر، قائلة: « حالاً يا سيدى! لقد علمت من ليزا ماى التى قدمت لكم الطعام بالأمس خبر حفلة الشواء. وصدقنى يا سيدى، لسوف يستغرق إعداد الشواء وحده كل دقيقة من الأيام الباقية على تلك الحفلة الكبرى ». وتوقفت هاتى عن الحديث ثم استطردت قائلة: « ينبغى أن أخبرك بشىء يا سيدى- ما دمت تعتزم التنقل هنا وهناك! تعرف العجوز موسى الذى جاء بك من المحطة فى عربته الصغيرة -لقد أصابه مرض شديد فى الليلة البارحة وهو طريح الفراش. لا أعرف مرضه بالتحديد، ولكنه سيظل راقداً فى الفراش زمنا طويلاً. ونحن نعتنى به خير عناية على أى حال ».

وقال فلتشر : « يؤسفنى أن أسمع ذلك » . ثم سألها : « ولكن هل تعرفين هاربن جون ؟ »

فأجابت : « طبعاً ! وهل يجهله أحد !؟ لا يمكن إقامة أى حفل صاخب فى هذه المقاطعة - وخاصة حفلات الشواء الكبرى - دون هاربن جون ! فهو افضل من يعد الشواء والكل يعلم ذلك . وإذا عقدت حفلة راقصة فى أى منزل كبير فسوف تجده هناك يعزف الهارمونيكا عزفاً رائعاً ! إنه لم يتزوج بعد ، ولا يدرى أحد من تشغل قلبه بين الجميلات ، وفى أى مزرعة تكون ! ولكن كل من يعرف هاربن جون يحبه ، فهو مولع بالهزل واللهو واللعب ! »

وكسرت ثلاث بيضات فى وعاء عميق ، ثم شرعت تضربها بشدة بشوكة خشبية حتى تعد طبق البيض المخفوق الطرى الذى يحبه فلتشر - فهى لم تنس ذلك - وابتسمت بسمة عريضة سعيدة بتقييمها الخاص لهاربن جون .

وسألها فلتشر : « ومن هو توم جريفز هذا .. مالكه ؟ »

وترددت هاتى قبل أن تقول : « الحق أن السادة الكبار مثل أبيك يفسدون ذلك المزارع المسكين ، إذ يدعونه هو وزوجته العجفاء إلى حضور حفلاتهم حين يستأجرون هاربن جون ليعزف فيها الموسيقى ! وهكذا يتصور السيد توم جريفز وزوجته أنهما ينتميان إلى المجتمع الراقى وهما بعيدان كل البعد عنه ! » وقلبت هاتى البيض المخفوق على النار . « لن أزيد عن هذا ، إذ لا ينبغى أن أخوض فى شئون البيض » .

وبعد الإفطار ركب فلتشر حصانه الذى أسرجه المشرف على

الاصطبل -كايرو -وأعده له . وانطلق على ظهر حصانه فاجتاز الممر الذى تظلله الأشجار ، وما لبث أن وصل إلى الطريق الترابى الرئيسى . كان يصر على أسنانه فى عزم وتصميم . كان يعتبر استئجار الموسيقى الأسود صانع الشواء مسألة ثانوية ، أما همه الأول الذى ما فتىء يقلقه ويزعجه فهو متى يتصل به شريكه فى «قطار الهروب السرى» ؟

كان فلتشر متوترا ، ويكاد يتوقع أن يسمع صوت حصان يقترب من الخلف ، يقول له راكبه الكلمات السحرية حين يصبح بموازاته . كان التوقيت ذا أهمية حيوية لتنظيم عملية هروب جماعية ، يرجو ألا يلحظها أحد ، أثناء انغماس المزارعين من ملاك العبيد فى الشراب والتهام الشواء الأسطورى الذى يعده هاربن جون .

وقال فلتشر فى نفسه إن عليه أن يجد وسيلة يوزع بها هدايا عيد الميلاد على المشرفين -زجاجات من الويسكى تضمن أن يسكروا تلك الليلة ، خاصة وهم يعلمون أن سادتهم فى حفل الشواء .

على طول الطريق كان فلتشر يتلقى التحية ممن خرجوا مبكرين مثله ، إما على ظهور جيادهم أو فى عربات صغيرة ، وكان يتوقف لتحيتهم إن كان يعرفهم أو يبطىء وحسب إن كان لا يعرفهم . ولاحظ أنه كلما أبطأت عربة أو توقفت حتى يلوح راكبوها البيض بأيديهم ، أو يلقوا إليه بالتحية ، كان سائقها الأسود يتصلب فى كرسيه العالى كأنه تمثال ولا يحول بصره عن

الطريق أمامه . وتساءل فلتشر فى نفسه إن كان بعضهم يفكر فى الهرب .

كانت مزرعة توم جريفز متواضعة إذا قيست بالمزارع العادية ، وكان البيت الذى يسكنه توم جريفز وزوجته صغيراً جداً (وكان فلتشر يتوقع من عامل ابتسم الحظ له أن ينفق كل ما لديه ، بل وأن يخاطر بالإفلاس حتى يبنى منزلاً ضخماً على الأقل يتفاخر به) وحسبما تقضى تقاليد الفقراء من البيض ، كان لديه عدد من كلاب الصيد ، يتراوح عددها ما بين عشرة واثنى عشر كلبا ، تقعى فى الفناء الأمامى ، وعندما اقترب فلتشر نبح منها ثلاثة أو أربعة . ونزل فلتشر من صهوة جواده قائلاً فى نفسه إنه معجب بصفتين على الأقل فى توم جريفز هما صراحته وعدم ميله إلى التظاهر . ولم يلبث أن ظهر المالك خارج البيت ، وسار بخطوات غير ثابتة لاستقبال ضيفه ، عند البوابة .

وعندما قال فلتشر إنه ابن راندول عضو مجلس الشيوخ كاد توم جريفز يخر ساجداً أمامه . وقال فى اضطراب : « نعم لقد سمعت عنك وعن تفوقك فى الدراسة فى الكلية فى الشمال » . وابتلع ريقه فبرزت تفاحة آدم فى رقبته ، وقال : « أعتقد أن والدك هو أفضل رجل فى هذه المقاطعة . لاشك فى هذا على الإطلاق ! »

وفى الدقائق التالية انهمك توم جريفز فى الثرثرة التى لابد أن تسبق أى حديث فى العمل بين أهل الجنوب ، فأخبر فلتشر عن أحوال الطقس فى الأيام الأخيرة ، وعن كسل العبيد وما إلى ذلك . كان من الواضح -كما قالت هاتى- أن توم جريفز يتحرق شوقاً إلى

اكتساب الأهمية ، وكان مستعداً للوقوف على رأسه ، أو لتقديم أى خدمة ممكنة لرجل يتمتع بنفوذ عضو مجلس الشيوخ راندول .

وقال فلتشر إن أباه يريد استئجار العبد هاربن جون لإعداد حفلة شواء عملاقة عشية عيد الميلاد فى شرفة منزله . وأخذ توم جريفز يومىء بحماس ، وفلتشر يقول له إن تقديم الشواء فى الشتاء على غير العادة سيكون جوهر حفلة عيد الميلاد الفريدة .

ولكن ، عندما حدد فلتشر موعد الحفلة قائلا إنها ستقع عشية عيد الميلاد ، امتقع وجه توم جريفز وتجهم ، ثم شرع يصرخ : «آه يا ربى! أى ليلة أخرى .. أىَّ ليلة أخرى!» كانت نبراته وأسلوب حديثه يناشدان فلتشر أن يتفهم الموقف . «لقد تم استئجار هاربن جون منذ شهرين ليعزف الهارب فى العرض المسرحى عن ميلاد السيد المسيح الذى تقدمه الآنسة ميليسا آن هارون فى الكنيسة عشية عيد الميلاد كل عام!»

لم يكن فلتشر يتذكر ميليسا بوضوح ، كانت أدنى منه طبقيا ، وكان قد عرفها فى مدرسة البنات التى التحق بها فترة وجيزة قبل انتقاله إلى المدرسة فى الشمال ، ممتلئة الوجه عادية الملامح . واستمر فلتشر فى الحديث كأنما لم يسمع ما قاله توم جريفز : «يقول والدى لابد من استئجار ذلك الرجل-فلا يمكن لسواه أن يفعل ما نريد» .

وبدا الهلع على وجه توم جريفز فعاد يقول : «آه يا ربى! لا يوجد فى الدنيا من أتمنى أن أخدمه خيراً من والدك عضو مجلس الشيوخ!» ثم قبض بيده على ذقنه وقال : «ربما استطعنا حل هذه

المشكلة .. لا أدرى .. لا أدرى!» فرد فلتشر قائلا : «لا نملك إضاعة الوقت! فإذا لم يكن لديك مانع فسوف أنطلق فوراً وأرى السيد هارون!» فبدا الأمل فى صوت توم جريفز وقال : «إنه هو الذى استأجره! اذهب إليه ولتصحبك آمالى وابتهالاتى!» ثم تصافحا ، وبينما وثب فلتشر ليستقر على ظهر جواده صاح به توم جريفز : «أرجو ألا تنسى أن تبلغ والدك سلامى!»

بلغت أنغام الهارمونيكا المرحة أذنى الطاهية العجوز هاتى وهى جالسة على كرسى منخفض ، وقد انهمكت فى تقشير البطاطس البيضاء التى كانت تعتزم سلقها وهرسها قبل إضافة الزبد والقشدة لتقديمها فى عشاء أسرة راندول ، فقامت مبتسمة واتجهت إلى الباب حيث رأت الحصان الكبير داخلاً الفناء الخلفى للبيت الكبير ، وعلى ظهره هاربن جون الذى كان يتألق ـ كشأنه دائماً ـ ولا يعرف له حدوداً! كان يضع الهارمونيكا على فمه بإحدى يديه وينفث فيها أنغامه الغلابة ، وعلى رأسه قبعته ذات الحافة العريضة ، وحول رقبته منديله البرتقالى ، وحلته البنية اللون ، وحذاءه ذا الكعب العالى الذى يتفق مع حلته ـ وهى الملابس التى يتميز بها عن الجميع .

وعندما خرجت هاتى إلى ممر المطبخ نزل هاربن جون عن جواده ، وأعاد الهارمونيكا إلى جيبه ، وناداها عبر الفناء : «مرحباً يا ماما الجميلة الكبيرة! لقد جاءنى سيدى وقال لى إن سيدك يريدنى أن أكون فى مكانين فى نفس الوقت ـ أعزف الهارب

فى مكان ، وأعد الشواء فى مكان آخر ! ثم أمرنى أن آتى إلى هنا بسرعة لأرى ما أعددتم العدة له . ماهذا الهراء الذى يتحدثون عنه على أى حال ؟ كيف يعدون الشواء فى حفل عيد الميلاد ؟ »

وقالت هاتى : «كلمة واحدة ياطفلى تفسر لك الموقف : البيض ! ولا يستطيع أحد أن يحدس ما سوف يحاولون أن يفعلوا ـ تعرف هذا مثلما أعرفه » .

وتأملته هاتى كأنما تستنكر ملابسه وأضافت : « هاربن جون جريفز !! ما هذا التباهى الفارغ ؟ إذا كنت الفتاة التى تخطب ودها ، فتأكد أننى سأزيحك عن طريقى فوراً ـ هل تسمع ذلك ؟ »

وابتسم هاربن جون ابتسامة عريضة . وقالت هاتى : « ألم يرك سيدى قادماً ؟ مبلغ علمى أنه كان ينتوى العودة فوراً إلى المنزل ، ولا أعرف كيف لم تره » .

فرد جون قائلا : « الواقع أنه اتجه من هناك إلى ميليسا آن هارون ، فأبوها هو الذى استأجرنى للعزف فى العرض المسرحى بالكنيسة فى نفس الليلة ـ عشية عيد الميلاد . ولذلك قررت أن آتى إلى هنا وأن أنتظر عودة سيدك ، حتى أعرف ما استقر عليه الرأى » .

وردت هاتى قائلة : « لابد أن يصلوا إلى حل ما ، لأن سيدى يريد أن يصل إلى حل . أعرف أن ميليسا سوف تغضب ، ولكن والدها لن يعارض عضو مجلس الشيوخ ـ وأراهنك » .

وتلفت هاربن جون حوله قبل أن يقول : « سمعت أن ميليسا قد تعلق قلبها بالواعظ الجديد الشاب الذى يعمل فى كنيستهم » .

«نعم! وأبوها فى غاية القلق خشية أن تفقد عقلها وتقبل الزواج منه، فهو يعرف أن الواعظ يطمع فى أموالهم».

لما كانت الصداقة القديمة الخالصة تربط بين هاربن جون وهاتى، لم يريا بأساً فى الثرثرة بحرية ـ بين جدران مطبخها المريح الذى الفته ـ حول الموضوعات الاجتماعية والسياسية التى تشغل بالهما. وبعد برهة أطلت هاتى من نافذة المطبخ وقالت: «انظر ها هو سيدى الشاب قد أقبل!»

كان هاربن جون يقف فى الفناء بالقرب من جذع الشجرة المجاور للجرن حيث نزل فلتشر عن صهوة جواده، وقد ابتسم ضاحكاً من الملابس الملونة التى ارتداها ذلك الطاهى الماهر والموسيقى البارع. «قال لى سيدك إنه يوافق على أن نشترك مع أسرة هارون فى استئجارك للعمل لدينا ولديهم فى الكنيسة نفس الليلة ـ عشية عيد الميلاد. وقد طلبت من الآنسة ميليسا آن هارون أن تبدأ حفلها فى الوقت المحدد تماماً، بحيث تستطيع عندما تنتهى من العزف أن تثب على ظهر جوادك وتسرع إلينا كيما تقدم شواءك للضيوف».

وابتسم هاربن جون بسمة عريضة وقال: «سيدى! يبدو أننى سأكون مشغولاً جدا تلك الليلة!» وقال فلتشر: «آه ـ تذكرت ـ مهمة اخرى لك! لعلك قد علمت من هاتى أن سائقنا موسى مريض. ويقول سيدك إنه لا يمانع فى أن توصلنى مع الآنسة ميليسا هارون إلى الحفلة الراقصة فى مزرعة جون رايس الليلة. وأرجو أثناء الرحلة أن نتحدث فى تفاصيل حفل الشواء».

وهبط قلب هاربن جون ، وقال فى نفسه إما أن سيده قد نسى ، أو أنه قد أخلف وعده بأن يعفيه من العمل فى عطلة نهاية الأسبوع - إذ أنه قد خصصها للقيام ببعض الزيارات الخاصة الهامة .

أما فلتشر راندول فقال فى نفسه : ربما استطعت إذا خرجت مع الجميلة المشهورة ميليسا آن - أن أصبح عاشقاً فى أعين الناس ، فتتاح لى حرية الحركة أثناء العطلة . إذ سوف يتصور الجميع أنى مشغول بمطارحتها الغرام .

وقال هاربن جون فى نفسه : من ناحية أبيها فهو على استعداد لإعداد فراش العرس لكما فى المقعد الخلفى للعربة ! ما أحرصه على مصاهرتك ! ولكن الكلمات التى وجهها إلى فلتشر كانت : « نعم يا سيدى ! فإذا أتيحت لنا الفرصة قدمت لى المزيد من التفاصيل عن حفلة الشواء الكبرى التى يريدها والدك » .

وعندما عاد هاربن جون إلى المطبخ ولمحت هاتى وجهه من زاوية معينة وقفت حائرة وسألته : « جون ! أنت مريض ؟ هل حدث مكروه ؟ » ولكنه استدار قائلا : « لا .. لم يحدث شىء » ثم خرج من المطبخ واتجه إلى الفناء وعينا هاتى العجوز السوداء تتبعه .

كانت ساعة الغسق تقترب عندما وصل فلتشر إلى منزل أسرة هارون فى العربة الفاخرة ذات المقاعد الأربعة التى يمتلكها عضو مجلس الشيوخ ويقودها هاربن جون . ورحب به السيد هارون وزوجته ترحيباً حاراً ، وأدخلوه بسرعة إلى غرفة الاستقبال .

وأكد السيد هارون فى حديثه مع فلتشر سروره بالحل الوسط الذى توصلوا إليه، قائلاً إن فكرة حفل شواء فى عيد الميلاد تستهويه شخصياً! وأضاف: «لسوف تعقد أنت وأبوك أكبر حفلة من نوعها فى تاريخ مقاطعة آش».

وتعمدت ميليسا آن أن تتأخر بعض الشيء، ثم هبطت السلم الحلزونى الذى يتوسط منزل الأسرة بخطوات تدربت عليها تدريباً محكماً - ثم دخلت غرفة الاستقبال ومدت يدها إلى فلتشر فارتسم على وجهه تعبير أيقنت معه - كما أيقن والداها - أنها قد اكتست أبهى فتنتها. وكان أبوها قد أرسل خادمة الطابق الأرضى لتطلب من هاربن جون أن يدور بعربته ويحضرها إلى الباب الأمامى للمنزل.

وسار السيد هارون وزوجته خلف ميليسا آن وفلتشر إلى الخارج حتى العربة، وكان هاربن جون قد فتح بابها على مصراعيه ووقف ممسكاً به ومنتصباً مثل التمثال.

وخطر للسيد هارون للحظة عابرة أن هاربن جون - عازف الهارمونيكا والمبتسم دائما - كان يتظاهر بوقار غير معتاد فيه بدلاً من إظهار مواهبه الخاصة! ثم انطلقت العربة نحو الطريق الرئيسى، وفيها الراكبان الجميلان، والسيد هارون وزوجته يلوحان لهما مبتسمين، بينما انفرجت قليلا ستائر بعض نوافذ البيت الكبير لتطل منها سرا بعض الوجوه السوداء التى بدا عليها الرضا - كوجه سوكى الخادمة وغيرها من خادمات المنزل. وانخرط فلتشر وميليسا آن فى حوار متقطع يشوبه التوتر، بينما كان هاربن جون يجلس عاليا فى مقعد السائق وقد انتصبت قامته

انتصاباً لا يشى على الإطلاق بأن اذنيه المرهفتين كانتا تلتقطان كل كلمة فى ذلك الحوار .

كانت العربة قد قطعت ميلاً تقريباً عندما قالت ميليسا آن : « إذا كنت تريد أن تحادث السائق عن حفل الشواء فتفضل - لا مانع عندى حقاً ! » وجاءها رد فلتشر موجزاً ومقتضباً إلى درجة ادهشتها إذ قال : « لا ينبغى ذلك » وصمت . أما هى فجعلت تتطلع إلى يديها وتتساءل فى نفسها إن كانت قد أصابت عندما وافقت على الخروج معه هذا المساء . أما هاربن جون الرابض فى المقعد الأمامى فكأنما كان وجهه قد تجمد .

وعندما وصلا إلى منزل جون رايس ساعدهما أحد الخدم على الخروج من العربة ، وأمسك فلتشر بذراع ميليسا آن وهما يدخلان لينضما إلى الحشد الصاخب الهائج المائج ، وكان الرقص قد بدأ فى القاعة الكبرى ، وكان اثنان من السود يعزفان على الكمان على منصة صغيرة مربعة ، بينما يتماوج جسماهما - فى صعود وهبوط وانحناء وتثن - وهما يعرضان مهارتهما فى العزف والتهريج معا لإرضاء البيض .

وبدا التوافق على فلتشر وميليسا آن ، والحاضرون يمطرونهما بالتحية والبشر يكسو الوجوه جميعاً . كان معظمهم من ابناء الأسر الراقية ، البعض فى سن آبائهما ، والبعض الآخر من زملاء الدراسة القدامى ، ولكنهما يعرفانهم منذ الطفولة . كان كل منهم

يشارك المجتمع افتخاره بأن فلتشر طالب متميز فى كلية برنستون الشمالية .

وفيما بين التحايا كانت عينا فلتشر تتنقل بين وجوه الرجال فى القاعة الكبرى فاحصة ثاقبة ، وقد اشتدت يقظته لأى نظرة تواصل مع أيهم . وقال فى نفسه إن افضل وسيلة لإخفاء شريكه فى مهمة «قطار الهروب السرى» هى وجود هذا الحشد الذى يتكون بصفة أساسية من الأسرات المالكة للعبيد وأبناء تلك الأسرات .

وعندما جذب فلتشر رفيقته ميليسا آن إلى حلبة الرقص ، كانت تشع بالفعل بريقاً أخاذاً وبدا الرفيقان صديقين : إذ نشآ وترعرعا معا ، وها هما يشرعان فى اكتشاف ذواتيهما ، عاشقين فى ريعان الشباب ، يحبان الرقص ، فيتوقفان عند انتهاء لحن موسيقى وينتظران اللحن الراقص التالى من العازفين .

وأخيرا سمح فلتشر لأحد الشبان بأن يراقص ميليسا آن ، بينما جعل يتنقل فى القاعة الكبرى مستمتعاً بالتعرف على بعض أصدقائه القدامى فى المدرسة وضربهم على ظهورهم مداعباً ! ثم ظهر الساقى الأسود لمنزل المضيف بحلته المخملية وسلوكه المهذب ، وأشار إلى فلتشر إشارة من يريد أن يحادثه ، فأومأ فلتشر وقد غلبه الفضول . واقترب الساقى منه وهمس فى أذنه : «سيدى راندول ! قيل لى يا سيدى إن سائقك الليلة هو هاربن جون ، وهو ينتظر الآن مع باقى السائقين فى الفناء الخلفى . ونريد أن نسألك يا سيدى إن كان لديك مانع فى أن يعزف الهارمونيكا لضيوفنا ـ ولو مرة واحدة ؟»

ودهش فلتشر أول الأمر لهذا السؤال ، ولكنه كان قد سمع الكثير عن عزف هاربن جون للهارمونيكا ، فلم يتمالك نفسه من الضحك وقال : «لا مانع عندى بطبيعة الحال»-فخرج الساقى مسرعاً من باب يؤدى إلى الفناء الخلفى حيث يلتقى السائقون جميعا ، وينتظرون خروج الضيوف .

وسرعان ما ارتفع صوت التصفيق بين الضيوف فى القاعة الكبرى-مما أذهل فلتشر إذ لم يكن يتصور أن هذا العبد الأسود كان يتمتع بهذه الشهرة الموسيقية-حتى على مستوى المنزل الكبير . وحدّق ليرى هاربن جون داخلاً ، وقد أصبح شخصاً مختلفاً كل الاختلاف ! كان جون الجديد يسير واثقا بخيلاء وسط الضيوف ، وقد ضم الهارمونيكا إلى فمه وأخذ يصدر أنغاماً قصيرة مكررة من باب المشهيات ! والواضح أنه دائما ما يحمل الهارمونيكا فى جيبه أينما ذهب .

وعندما وثب هاربن جون إلى المنصة هبط عازفا الكمان إلى أرضية الغرفة فأحاطا به من الجانبين . وسرعان ما انطلقت موسيقى الهارمونيكا لتشهد لهاربن جون ببراعة جعلت فلتشر يفغر فاه دهشة وعجباً ! كانت قبضتاه تحكمان الإمساك بالآلة وتضغطان بها على فمه ، وقد أقفل عينيه تقريباً ، بينما توترت عضلات وجهه توتراً يعكس انهماكه الشديد فى العزف ، بينما طفق جسده ينتفض ويتلوى وينحنى مع الايقاعات الغلابة للموسيقى . ولم يكن فلتشر قد شاهد أو سمع ما يشبه هذا من قريب أو بعيد ، فوجد نفسه يشترك فى موجة التصفيق والصفير والتحية ، واقفاً مع الآخرين ليعبر عن اعجابه عندما توقف هاربن

جون وانحنى ليرد التحية ويغادر القاعة مسرعاً مثلما دخل .

كان الجميع يشعرون بأن الأمسية كانت باهرة عندما طلبت ميليسا آن من فلتشر أن يرحلا مبكراً لأن منزلها بعيد ورحلة العودة طويلة .

لم تكن تريد أن تجعل فلتشر يحس أنها تتوقع منه محادثتها على انفراد فى شئونهما « العاطفية » ، إذ خطر لها أثناء الرقص انها إذا استجابت لفلتشر فسوف تعتبر أسرتها ذلك نصراً كبيراً - ولو أنه يعنى - بطبيعة الحال - جرح قلب القسيس الشاب . ولكنها قالت فى نفسها إنها سوف تعالج الأمر إذا نشأ ما يستدعى ذلك . وكانت تدرك أنها إن قبلت فلتشر فسوف تكسب رضا أبيها الأبدى - ورضا أمها أيضا . ثم عادت تقول لنفسها إنها لن تندم - حتى من وجهة نظرها الشخصية - إذا حدث ذلك .

ووقف الساقى فى حلته المخملية ، مزهوا بأناقته ، خلف سيده وسيدته - أصحاب الحفلة - وهما يودعان فلتشر وميليسا آن . ثم سار الساقى خلفهما حتى العربة التى كانت تنتظر أمام الباب الأمامى ، حيث وقف هاربن جون ممسكا ببابها المفتوح .

وصاح فلتشر عندما رآه قائلا : « لقد كنت رائعاً حقاً ! »

فانحنى هاربن جون قليلاً ويده ما تزال ممسكة بمقبض الباب المفتوح وقال : « شكراً لك يا سيدى » .

وعندما انطلقت العربة فى رحلة العودة، اقترب فلتشر من ميليسا آن أكثر مما فعل أثناء ذهابهما، ولم تعترض هى على ذلك، ثم قال مشيراً إلى ظل الرجل الجالس على مقعد السائق أمامه قائلا : «لم أكن أدرى - هل كنت تعرفين أنه يستطيع العزف بهذه البراعة؟»

وردت قائلة : «طبعا وإلا ما استأجرته للعزف فى برنامج الكنيسة!» ثم أضافت : «ولكن موسيقى الكنيسة ستكون من نوع مختلف تماماً». فرد فلتشر قائلا : «لا أعتقد أن ذلك سوف يستعصى عليه». ثم طافت بذهنه صورة شاب أسود من أحرار الشمال عزف أمامهم ذات يوم فى كلية برنستون. كان قد ولد أعمى ولكنه تعلم بطريقة ما أن يعزف البيانو، وكان يكفيه أن يستمع إلى أى قطعة موسيقية كلاسيكية على البيانو حتى يؤديها من الذاكرة - تماماً مثلما سمعها.

وقال فلتشر : «ما أروع هؤلاء الناس.. أعنى بعضهم..»

وقالت ميليسا آن : «محتمل. إذا كنت تعتبر السود أناساً».

وظلا طول الطريق تقريباً متلاصقين وقد أمسك فلتشر بيد ميليسا برفق. كان يبدو على كل منهما أنه مستغرق فى استرجاع أحداث ذلك المساء أو ربما فى النظر فى احتمالات المستقبل، بينما كان هاربن جون يجلس أمامهما على كرسى القيادة المرتفع الضيق، قابضاً على ألجمة الخيل، منتصباً جامداً وهو يقود العربة فى ضوء القمر الساطع، وكان وجهه يلمع كأنما صنع من الشمع.

وعندما وصلت العربة إلى منزل أسرة هارون ، توقفت فى الممر أمام الباب ، وكان شباك غرفة النوم الرئيسية فى الطابق الثانى مضاء ، ولهب مصباح الزيت تلعب به الريح . وسرعان ما هبط والد ميليسا آن لاستقبالها ، مرتديا روبا منزليا فوق قميصه وسرواله ، وفى يده مصباح آخر . وقام فلتشر فأعان ميليسا آن على الخروج من العربة ، معتذراً لوالدها عن تأخرهما ، ثم ألقى عليها تحية المساء مضيفاً أنه يأمل أن يراها مرة ثانية فى وقت قريب .

وأومأت إليه ثم وقفت أمامه وقد غمرها ضوء القمر ، وعلى شفتيها أعذب ابتسامة ، بينما شكر والدها فلتشر وصافحه واستدار ليصحب ابنته إلى داخل المنزل .

وكان هاربن جون قد أسرع أثناء تحيات الوداع إلى البئر فى الفناء الخلفى للمنزل فملأ دلواً خشبياً بالماء وأحضره ليسقى الجياد العطشى . وعندما عاد فلتشر إلى العربة كانت الجياد قد شربت الماء فانحنى هاربن جون ليحمل الدلو . فقال له فلتشر : « قال لى سيدك توم جريفز إنه قد أمرك بمقابلتى أنا ووالدى فى منزلنا فى الثانية عشرة تقريباً غداً حتى نتحدث فى تنظيم حفل الشواء . هذا معناه ظهر الغد ، وأريدك ألا تخلف هذا الموعد » .

وألقى هاربن جون نظرة سريعة على المنزل الكبير الهادىء الذى تملكه أسرة هارون ، ثم التفت ونظر نظرة ثاقبة فى عينى فلتشر راندول وسأله : « هل أنا أخوك ؟ »

ودارت الأرض بفلتشر راندول ، فأمسك بالحافة العليا للعجلة

الخلفية الكبيرة حتى يحفظ توازنه-ثم أجاب بصوت واهن:
«أنا-أنا أخوك».

وقبض هاربن جون على ذراع فلتشر وأعانه على ركوب العربة. كان فلتشر مذهولاً وهو يجلس نفسه على المقعد الخلفى الذى يتسع لاثنين-بينما ضرب هاربن جون ظهر الجياد فاهتزت العربة المغطاة وشرعت تتحرك.

لايمكن لأحد أن يتصور اشتراك هذين- إن رآهما-فى مؤامرة من أى نوع، وهما ينطلقان فى عربة عضو مجلس الشيوخ الفارهة! كان هاربن جون يجلس منتصباً كما ينبغى فى مقعد القيادة المرتفع، والطالب الجامعى الشاب المحبوب-ابن عضو مجلس الشيوخ الثرى ذى النفوذ-مضطجع فى الكرسى الخلفى المريح!

وأعاد فلتشر على مسامع هاربن جون الأوامر الخاصة التى تلقاها من رئيس السائقين مارلون-وقد حفظها عن ظهر قلب.

وأحس هاربن جون بضيق لا يوصف، كأنما انسدت مسام جلده نفسها، حين أدرك هول المخاطرة التى كلف بها هو وذلك الشاب الأبيض الغض الذى لم يختبر ولم تعركه التجارب بل اندفع إلى المهمة بتأثير أسرة من الكوكريين! كيف يستطيعان فى أقل من أسبوعين تنظيم وإنجاح عملية هروب جماعية لعدد يصل إلى اثنى عشر عبداً حتى يتبعوا النجم القطبى إلى السلامة والحرية؟

وكأنما قرأ فلتشر أفكار هاربن جون فاستمر يقول فى توتر:

«خطر لى تقسيم الهاربين إلى مجموعتين تهرب كل منهما فى موعد مختلف» .

وركز هاربن جون بصره على يديه الممسكتين باللجام وقال : «أقول ما دمنا قد قررنا المخاطرة بأرواحنا فينبغى أن تبدأ الإصغاء إلىّ .» ومضى هاربن جون فى حديثه شارحاً لفلتشر أن عملية هروب جماعى واحدة قد تكون أقل فى مخاطرها من عمليتين .

ووافقه فلتشر قائلا إن عملية واحدة ستنتفع انتفاعاً كاملاً بعنصر المفاجأة ، وأضاف جون أن أحد الذين يريدهم أن يهربوا رجل تمرس فى فن القيادة «رجل يعرف المناطق المحيطة بنا خير المعرفة ، مثل خط السير الذى سنرسمه للمجموعة ، فلقد عمل عشر سنوات أو أكثر فى الغابات ويجيد انتقاء الأشجار الصالحة لأخشاب الأكواخ وطريق السير بكل مدقاته التى استخدمها الزنوج ، ومن ثم نستطيع الاعتماد على خبرته ونثق أنه سيقود المجموعة مباشرة إلى ذلك «المستودع» الذى أعده الكوكريون لهم» .

وقال فلتشر : «لابد أن أصدقك القول .فأنا مازلت أحاول تقبل الموقف ، لأننى بصراحة تامة كنت أتوقع رجلاً أبيض» .

«أنا لست بكل تأكيد أبيض! وما دمنا ننشد الصدق ، فأنا ما كنت لأختارك أنت الآخر! ولكننا قد ارتبط أحدنا بالآخر ، والأفضل أن نترك مسألة اللون لوقت آخر! فالمهم الآن هو أن يثق كل منا فى صاحبه» .

ووضع هاربن جون الهارمونيكا على فمه وعزف لحناً راقصاً . واعتدل فلتشر فى جلسته ، وقال : «لم أعرف فى حياتى من يستطيع عزف هذه الألحان على الهارمونيكا » .

« ولا أنا - عندما أمسكت بالهارمونيكا لأول مرة وأنا بعد فى السادسة ! ولكننى واصلت العزف من ذلك العهد البعيد » ونظر هاربن جون إلى الآلة الصغيرة قبل أن يضيف : « هذه من أفضل الأدوات اللازمة لما نفعله أنا وأنت » .

« ماذا تعنى ؟ »

ووضع هاربن جون الهارمونيكا على فمه ثانيا فأصدر صوتاً نابضاً يوحى دون جدال بصوت القاطرة البخارية وهى تلهث للإسراع على القضبان . ومال فلتشر إلى الأمام فى دهشة - فقال جون : « أركبوا القطار أيها الصغار ! - هذا هو ما يعنيه اللحن لمن ينتظر لحظة الهرب » - ثم تحول إلى لحن دينى من ألحان السود وسأل فلتشر : « هل تعرف اسم هذه الأغنية ؟ »

«لقد سمعتها من قبل ولكننى لا أذكر اسمها » .

واندفع جون يغنى : « اهربوا .. اهربوا إلى المسيح - أرأيت ؟ إنها ترنيمة كنسية قديمة من ترانيم السود ، وهذا هو ما يتصوره البيض عندما يسمعونها ، أما السود الذين أخذوا أهبتهم للهرب فسوف يفهمون منها أن الوقت قد حان للرحيل . وهكذا ترى أننى سأنطلق ذات يوم على ظهر حصانى ممثلاً دور المهرج أمام الجميع ، حتى إذا مررت بأماكن معينة ، وأمام أناس بأعينهم ، عزفت مقطعاً صغيراً من ترنيمة « اهربوا .. » ، فلا يتهمنى أحد

بأننى قلت أى شىء - لأننى فى الحقيقة لم أقل أى كلام ، ولكن رسالتى ستصل إلى من أريد » . والتفت لينظر إلى فلتشر وقال : « أرأيت ما أعنى ؟ »

وأعاد هاربن جون الهارمونيكا فجأة إلى جيبه ، وضم يديه وكوّرهما على فمه نافخاً فى راحتيه فأصدر الصوت الحزين الذى عرفه فلتشر وابتسم له . وسرعان ما أكده له جون قائلاً : «نعيق البومة - هذه هى إشارتى إن تاه أحدنا عن الآخر » وفكر لحظة ثم قال : « لابد أن أعلمك كيف تصدر صوت البومة فى أول فرصة تتاح لنا ، وأريك بعض الأماكن التى يمكن أن تلجأ إليها إن أردت الاختباء - فهذا أمر محتمل ! »

وقبل أن يصلا إلى منزل أسرة راندول بقليل قال هاربن جون : « سأكون هنا فى الثانية عشرة ظهراً لأبدأ إعداد الشواء . وينبغى أن تتخلص من وجود والدك بأسرع ما يمكن حتى نستطيع الحديث أنا وأنت على انفراد - فما زال أمامنا حديث طويل » .

الفصل السابع

لم تكن قد انقضت سوى ثلاثة أيام على هذا الحديث عندما دخلت ليزا ماى خادمة الطابق الأرضى على عضو مجلس الشيوخ راندول ، لتخبره أن مشرف المزرعة جون هوكنز قد نزل لتوه عن صهوة جواده فى الفناء الجانبى للمنزل . ودهش راندول وانزعج بعض الشيء بينما أضافت الخادمة قائلة : « إنه يسأل إن كان سيدى فى المنزل ، وقلت له لا أعرف ، ولكننى سأسأله على أى حال » .

وخرج عضو مجلس الشيوخ ، ورد ببرود على تحية المشرف ، إذ لم يكن على موعد معه ، وكان يعتقد اعتقاداً جازماً أنه ينبغى الإبقاء على المسافة التى تفصله عن المشرفين وغيرهم من فقراء البيض وإلا خيل إليهم أنهم مساوون له .

وكان المشرف يعرف هذا - فوقف ممسكاً قبعته فى يده ، وأصابعه تعبث فى قلق بحافتها ، ثم قال إنه يريد أن يدخل البهجة على قلب عضو مجلس الشيوخ . فلا شك أنه سيسعد حين يعرف مدى إعجاب مراقبى العبيد بابنه .

وسأله راندول : « ماذا تعنى ؟ »

ووضع هوكنز قبعته خلف ظهره ، وقال : « لقد شعرت يا سيدى أنه قرر أن يفعل ذلك دون طلب منك ، ولكننى كنت واثقاً أنك سوف تحس بالفخر إذا علمت » .

وجعل هوكنز يحكى كيف قضى فلتشر معظم وقته طيلة الأيام الثلاثة الماضية على ظهر جواده متنقلاً بين مراكز مراقبة العبيد فى المنطقة.

وصاح راندول: «غير معقول!»

«بل هذا ماحدث ياسيدى!» - قالها المشرف بفرح طاغٍ إذ أحس أن جهوده للتقرب من سيده قد أثمرت، فأضاف: «وقد أخبرنى رجال الدورية أنه يهتم اهتماماً حقيقياً بدراسة عمل الدورية والمراقبة حتى يزيد من الضبط والربط. وقد قالوا لى إنه يسأل عن كل صغيرة وكبيرة».

وقال عضو مجلس الشيوخ: «أذكر أننا سهرنا فى الليلة التى رجع فيها الصبى حتى وقت متأخر، ولقد ذكرت له بالفعل هروب عدد من العبيد من منطقتنا - ولكننى لم أكن أتصور أن يأخذ المسألة مأخذ الجد إلى هذه الدرجة».

«بل هو جاد كل الجد ياسيدى! فرجال الدورية يقولون إنه أعد جدولاً مليئا بالملاحظات، بل وبعض الرسوم الكروكية عما سمعه منهم عن الطرق والأخوار والجسور، وما إلى ذلك فى هذه المنطقة من المقاطعة».

وصاح راندول: «ما أغرب ذلك حقا! بل كم ستدهش أمه لسماع ذلك، إذ كانت تشكو أنه لا يقضى عطلاته معنا هنا!»

«أوكد لك يا سيدى أن حرمكم سيسرها أن تعرف مدى اجتهاد ابنها فى هذا المضمار، وسوف يضمن لنا بما أوتى من ذكاء ألا يهرب أى عبيد من هذه المنطقة ردحاً طويلاً من الزمن!».

وقال عضو مجلس الشيوخ : « أود أن أشكرك يا هوكنز ! أقسم أننى لابد أن أعتذر إلى فلتشر عندما يعود إلى المنزل ! يا عجبا ! إننى لم أشأ أن أسأله أين يقضى وقته لأننى ـ فى الواقع ـ ظننت أنه مشغول بمطارحة الغرام فى مكان ما » .

وابتسم المشرف ابتسامة عريضة وحك أذنه اليمنى بإصبعه وقال : « لا يا سيدى ! بل كان مشغولاً مع رجال الدورية واكتسب صداقة الكثيرين منهم ! إنهم لا يصدقون أن ابنك الغنى المتعلم سيتنازل ويبادلهم الحديث . بل لقد تطوع وقضى بعض نوبات الحراسة حتى يجرب بنفسه عمل الدورية » .

مر هاربن جون مسرعاً أمام أكواخ العبيد التى اصطف بعضها بجوار بعض ، ثم توقف وأقعى أمام رجل فى منتصف العمر ، نصف أسود ، يجلس على قُرْمة منخفضة ويضرب بمطرقة خشبية ذات يد قصيرة على أَجَنةٍ حادة يقطع بها قطعاً خشبية مربعة من جذع شجرة بلوط ، ويضعها واحدة فوق الأخرى حتى وصل ارتفاعها الى قدم كامل .

وسأله هاربن جون بلهجة مرحة : «كيف حالك يا عم بن ؟ وكيف حال زوجتك الطاهية الماهرة ؟ »

ودون أن يرفع بصره عما يفعله أجاب العم بن : « لا بأس ، لا بأس ، ها نحن نقضى الليالى فى الكوخ فى انتظار سماع صوت البومة » .

وقال هاربن جون : « أعتقد أنك ستسمع هذا الصوت قريباً » .

كان يتفحص السترة البالية التى يرتديها الرجل الهرم النحيف ، ودون تفكير خلع هاربن جون سترته وقال : « يا عم بن أريدك أن تأخذ هذه السترة وترتديها لأن السترة التى تلبسها الآن لا تكفى فى هذا البرد . أعرف انك تشعر بالبرد ، ولدىّ أنا الكثير » .

وتوقف العم بن عن صنع المربعات الخشبية لحظات تأمل فيها السترة المقدمة إليه ، ثم قال : « لا ! شكراً لك يا بنىّ! هذه السترة أجمل من أن يرتديها رجل مثلى . قدمها إلى بعض الشبان هنا ، وأراهنك أنهم سوف يختطفونها » .

وقال هاربن جون : « لقد صدق ما يقوله الناس عنك ! فأنت عنيد مثلما أنت مجد فى عملك . ولكنى عنيد مثلك ! وسوف أعطى هذه السترة لزوجتك السيدة إيما ، وأطلب منها أن تلح عليك أن ترتديها ! »

وندت عن العم بن صيحة مكتومة تنم عن الدهشة والعجب ثم قال : « قدرتها على اقناعى بهذا لا تزيد عن قدرتها على اقناعى بالركوب فى سرج على جانب خنزير ! »

« لا بأس يا عم بن ! سأتركها معها على أى حال ! ولكن تذكر ما قلته لك ! سوف تسمع صوت البومة ذات ليلة قريبة ، وأنا أعلم أنك قادر ومستعد على الخروج ببنى إسرائيل ! »

وانتهى هاربن جون من اثنتى عشرة زيارة قصيرة مماثلة ، وهو يخب على فرسه بين أربع مزارع كبيرة ، ثم اتجه آخر النهار إلى منزل عضو مجلس الشيوخ راندول . لم يكن أقل إنهاكاً من الفرس المجهد ، إذ كان عليه أن يكون فى كل مكان فى نفس

الوقت ، ومعنى ذلك أنه لم يقض فى مكان واحد أكثر من نصف ساعة . كان كتلة من الحركة والنشاط وهو يتصل بالناس ليساعدوه على إعداد الشواء عشية عيد الميلاد فى منزل راندول ، قائلا فى نفسه : «ينبغى أن نهيىء من الطعام والشراب للبيض ما ينسيهم أنفسهم ويلهيهم فترة تكفى لهروب العبيد !» . كما أباح لنفسه لحظات يتصور فيها ويتلذذ بعملية الشواء الأسطورية . تبدأ العملية - بالطبع - باختيار أفضل أنواع اللحوم ، ولن تكون سهلة هذه المرة إذ أن أسرة راندول لا تريد لحم الخنزير المشوى فقط ، بل تريد أيضاً شواء من اللحم البقرى ولحم العجول والدجاج . وبعد ذلك تأتى مرحلة التتبيل ، إذ ينبغي خلط اللحوم بمزيج التوابل الاثنى عشر بعد طحنها وعجنها مع العسل الأسود ودقيق الذرة الصفراء وتركها ستا وثلاثين ساعة على الأقل ، حتى إذا امتصت هذا المزيج ، وضعها على نار الفحم المصنوع من خشب الورد والمغطى بطبقة من الرماد بحيث تستغرق وقتاً طويلاً على هذه النار الهادئة ، يتراوح مابين اثنتى عشرة وأربع عشرة ساعة ، قبل أن ينضج الشواء فيرقص فيه اللحم على العظم! وابتسم هاربن جون لنفسه إذ خطر له أن هذا هو نصف سره فحسب ، وأن النصف الآخر يكمن فى الصلصة الخاصة التى تتضمن مكونات لا يعرفها سواه ، ويعدها على نار هادئة أيضاً بحيث لا تكاد تتجاوز درجة الغليان لفترة قد تصل إلى أربع وعشرين ساعة . وابتهج هاربن جون حين تذكر عدد المرات التى وقف يقدم فيها الشواء إلى صفوف لا نهاية لها من البيض والسود ، كلهم يتغنى بمحاسن شوائه ، والبعض يعود للمزيد ، بل لقد عاد بعضهم ليملأ طبقه من جديد خمس مرات متوالية!

ونما إلى علم هاربن جون أن زوجة راندول تعتزم إحضار مائتى حقيبة ورقية، تملأ كل منها بالرمل وتغرس فى منتصفها شمعة مضيئة، ثم تصف جميعاً على جانبى الممر المنحنى الذى يؤدى إلى المدخل وعلى جانبى المدخل نفسه، بحيث تبدو كأنها صف من المنارات المتلألئة التى يتراقص ضوؤها فينير الطريق حتى الباب الأمامى للمنزل.

أما موقع الشواء فيضيئه ستون مصباحاً من مصابيح الكيروسين المدلاة من سلك سميك مشدود شداً محكماً تحت حافة سقف الشرفة، أما الآن فكان هاربن جون يريد أن يفحص دون إبطاء الهيكل الخشبى المرتفع المقام على أعمدة خشبية، والذى ستشد عليه قطع الخيش العريضة التى أحضرت من محلج القطن حتى تغطى الشرفة كأنها سرادق كبير. كان العمل يجرى على قدم وساق، وينهض به أربعة من النجارين من بين العبيد السود الذين يمتلكهم أحد صغار المزارعين، الذى تبرع بأجر عملهم إكراماً لعضو مجلس الشيوخ بدلاً من أن يتقاضاه كعادته. أما شكل المناضد الخشبية التى سيقدم عليها الشواء فكان من تصميم هاربن جون نفسه، وكان تحت كل منضدة بعض الرفوف التى سيوضع عليها الشواء وغيره من المأكولات استعداداً للحظة تقديم الطعام إلى مائتين من الضيوف من ذوى البطون الخاوية.

وعندما اقترب هاربن جون من منزل راندول صافحت أذنيه أصوات بعض المغنين السود وهم ينشدون بعض ترانيم عيد الميلاد، فقرر أن يتجه أولاً إلى المطبخ ليعرف من هاتى العجوز سر هذا الإنشاد، ولكن هاتى لم تمهله بل مالت برأسها مشيرة

إلى الأصوات، وقالت: «لقد استعارت سيدتى اثنين أو ثلاثة من أفضل المنشدين من مزارع أصدقائها، وأتت بهم إلى هنا للتدرب على الإنشاد الذى سيقدم ضمن الحفلة الكبرى عشية عيد الميلاد». كانت هاتى تتحدث إلى هاربن جون وقد ركزت بصرها عليه تتفحصه، فبدا لها أن وجهه تجهم للحظة عابرة، فعادت تنظر إليه قائلة: «أريدك أن تسدى إلىّ معروفاً! إنك كثير التجوال والتنقل! حاول أن تجد لى حفنة لا بأس بها من أعشاب القديس يوحنا، إذ أريد أن أضعها فى طبق خاص يبهج بعض من أعرفهم». وأجاب شارد الذهن: «وهو كذلك. سأحضر لك بعضاً منها من مكانٍ ما». وعادت هاتى تقول: «وما دمت ستبحث عنها حاول أيضا أن تحضر لى اثنتين أو ثلاثاً من جوزة الطيب، فأنا أريد أن أسحقها وأضيفها على مشروب كوكتيل البيض فى المنزل الكبير».

ولم تدهش هاتى لعدم استجابة جون: كان يقف بجسده أمامها ولكنها تدرك أن ذهنه كان شارداً فى مكان بعيد. ووجهت خطابها هذه المرة فى لهجة لاذعة حاسمة تنم عن صدق قلقها عليه: «أصغ إلىّ يا هاربن جون جريفز! وكن حريصاً وخذ الحذر! هل تسمعنى؟»

بلغ الغضب بميليسا آن هارون مبلغه، فبدا أنها على وشك الانفجار. كانت فى الثامنة عشرة، وقد سمح لها أبواها بالخروج مع شاب فيما يشبه الموعد الغرامى المحدود، بعد انقضاء عام ونصف على آخر مرة خرجت فيها مع شاب، وها هى

الآن تواجه التجربة المريرة- تجربة إلغاء موعدها مع فلتشر! وحاول أبوها تهدئتها واقناعها بقبول العذر الذى قدمه فلتشر، إذ كتب يقول إنه فى غاية الحرج ولكنه كان قد التزم من قبل بمصاحبة رجلين من رجال الدورية فى جولتهما التى تستهدف منع العبيد من الهرب.

وصاحت ميليسا آن فى سورة غضبها: «وماذا يعنينى أنا من ذلك؟ بل ماذا يعنيه هو من القبض على العبيد؟» ثم أضافت: «وعلى أى حال فليس بينى وبينه شىء! لقد قضيت معه بعض الوقت وحسب! لكننى سوف أتزوج القسيس براون!»

ورد عليها والدها فى أرق النبرات حتى يهدىء من انفعالها: «فكرى يا حبيبتى فيما تقولين! لابد أن تنظرى إلى الجانب المادى للمركز الذى سوف تستمتعين به طول عمرك. وإن شئت الصراحة يا حبيبتى فإن القسيس براون لا غبار عليه، وهو إنسان ممتاز ولا شك. ولكنه من ناحية يكبرك بعشر سنوات، والأهم من ذلك أنه لا يملك سوى مرتب القسيس! وبصراحة أيضاً يا حبيبتى فإن الفتاة التى ستتزوج فلتشر راندول- أيا كانت- تستطيع أن تتوقع رغد العيش طول العمر. ولا أعتقد أن عقيدتك المسيحية- التى تسترشدين فيها بالقسيس براون- تطالبك بأن تتجاهلى هذه الحقائق».

وتوقف أبوها عن الحديث، لأن ميليسا آن انطلقت تعدو والدموع تنهمر من عينيها.

فى يوم الثامن عشر من ديسمبر عام ١٨٥٥- قبل أن يحل عيد

الميلاد بأسبوع - خرج الابن اليافع لمشرف من مشرفي المزرعة للصيد مع أفضل كلب من كلاب والده . وعندما عاد الصبي إلى المنزل في الظهر ليتناول غداءه شرع يقول لوالده إنه لم يعثر على ما يصيده ، ويقص عليه ضاحكاً أنه ظن في إحدى جولاته أن الكلب قد عثر على شيء فاندفع إليه ، ولكنه لم يجد سوى كومةٍ من الألحفة والبطاطين القديمة مغطاة بكومة أخرى من الأعشاب الجافة عند أحد المنحنيات في أحد الأودية الضيقة !

وتوقف المشرف عن تناول الطعام أثناء حديث ابنه وانتظر حتى أكمل القصة ، ثم قال له فجأة : « لا بأس ! هيا بنا ! خذني مباشرة إلى تلك البقعة ! »

ولم يكد يحل المساء حتى انتشر الخبر في أرجاء مقاطعة « آش » ، وهو أن صبيا خرج للصيد فعثر كلبه مصادفة على كومة جديدة من الألحفة والبطاطين المغطاة بالقرب من نهاية مدق من مدقات المزرعة . لم يكن ثم شك في أن الكومة قد أعدت للعبيد المستعدين للهرب والذين يحتاجون إلى الألحفة والبطاطين أثناء انطلاقهم إلى أصقاع الشمال الباردة . وهكذا فقد تدخلت المصادفة وحدها لإحباط محاولة كبرى للهرب .

وعندما انتشرت هذه الأنباء في اليوم التالي قامت الدنيا وقعدت في شتى مزارع مقاطعة « آش » والمقاطعات المتاخمة لها ، فالواضح أن محاولة الهرب ليست عشوائية بل سبق التخطيط لها بدقة .

وهكذا اجتمع ثمانية وعشرون مزارعاً في عصر اليوم التالي ،

على وجوههم سيماء الغضب، فى شرفة منزل راندول، وكانوا قد قدموا من شتى المزارع فى مقاطعة «آش» والمقاطعات المتاخمة لها، على ظهور الخيل وبيدهم بنادقهم. وكان عضو مجلس الشيوخ مغيظاً حانقاً فأصر على حضور ابنه فلتشر كى يخبر بنفسه مشاكل المزارعين. ولم تطل الجلسة، إذ أقسم المزارعون فى غضب أن يقتلوا أى إنسان تثبت صلته بهذه المحاولة.

كان المزارعون الثمانية والعشرون يجلسون حول منضدة واحدة فى الشرفة، وانتهت الجلسة بأن كتب كل منهم شيكاً أو وقع تعهداً بدفع مقدار من المال، بحيث كان المجموع كافياً لمضاعفة عدد دورية مطاردة العبيد الهاربين أربع مرات، أو على الأقل لتدعيمها. وقرر المجتمعون استئجار أعتى مشرف من كارهى السود لرئاسة الفريق، ومنحه الحق فى اختيار رجاله من بين أشرس وأغلظ كارهى السود، وتسليحهم بأمضى الأسلحة وتزويدهم بالكلاب. كما تم الاتفاق على نشر إعلانات كبيرة فى الصحف الأسبوعية بتقديم مكافآت لم يسبق لها مثيل لكل من يقبض على عبد هارب ويعيده إلى صاحبه - وعلى أن يلقن العبد الهارب درساً لا ينساه.

لم يكن يبدو على عميلى «قطار الهروب السرى» ما ينم عن عملهما، وقد قدرا أن أفضل تمويه لهما هو مواصلة اللقاء فى العربة، حيث يستطيعان الحديث فى مأمن من الظنون، وهما ينطلقان فى الطريق الرئيسى المكشوف، فمن يراهما سيرى

صورة الطالب الجامعي، ابن عضو مجلس الشيوخ الثرى ذى النفوذ، مضطجعاً ناعماً فى الكرسى الخلفى، فى عربة يقودها إلى أى مكان شاء ذلك العبد الأسود الشهير الذى يعرف فيه الجميع البساطة واللامبالاة- هاربن جون.

أما الآن فقد تعرض الجميع- حتى هذان- إلى النظرات الفاحصة من رجال الدورية ذوى العيون الثاقبة، الذين يحملون بنادق صيد الغزلان، وينتشرون فى كل مكان، وكان بصحبتهم من تطوع من صغار المزارعين الغاضبين. وفى هذا الجو الملبد بالغيوم المنذرة بالشر، لجأ الصديقان العاملان فى «قطار الهروب السرى» إلى ضغط أحاديثهما العاجلة فى أقصر وقت ممكن.

وقال فلتشر لصاحبه: «كيف يتسنى لنا تهريبهم فى هذا الجو؟ إنه جو قاتل إلى أبعد الحدود! بل ليس أمامنا إلا تأجيل الموضوع قليلاً حتى تهدأ الأمور بعض الشيء»،ورد عليه هاربن جون قائلاً: «لا يحتمل أن تهدأ الأمور إلا بعد وقت طويل! أعتقد أننا ربما استطعنا إنجاز الأمر عشية عيد الميلاد كما سبق أن خططنا له»- وتردد وهو يجيل بصره فى شتى الاتجاهات ثم قال: «لقد حادثت بعض الأصدقاء» وصرخ فلتشر: «الأصدقاء؟ تعنى الكوكريين؟» «لا لا! الكوكريون من أهم أصدقائنا لا شك فى ذلك! ولكننى حادثت بعض الهنود الحمر فى هذه المنطقة».

وقال فلتشر فى نفسه لم لا؟ الهنود الحمر؟ فليكن! لقد تم نقل معظم الهنود إلى أوكلاهوما فى الثلاثينات، ولكن أعداداً محدودة

من قبائل الهنود لم ترحل وما زالت تعيش فى شتى أرجاء كارولينا الشمالية - بل فى شتى أرجاء الجنوب أيضا ! إن الهنود يجيدون فنون العيش فى الطبيعة ، فيستطيعون أن يقصوا أثر أى إنسان أو حيوان ، مهتدين بعلامات لا يستطيع الرجل الأبيض اكتشافها . بل إنهم يستطيعون الرؤية فى الظلام !

وقال هاربن جون : « فى هذه اللحظة يقوم اثنان من أصدقائى الهنود بقطع الشجيرات فى الأدغال لإعداد طريق خلف المزرعة . لقد أعدا طريقاً مغطى يؤدى إلى النهر الجديد » . ثم نظر إلى فلتشر وقال : « هل تعرف أين يتجه النهر الجديد ؟ »

« إلى الشمال الشرقى - إذا لم تخننى ذاكرتى ! »

« لم تخنك ذاكرتك ! لقد وافق أحد أصدقائى الهنود على أخذ فريقنا فى بعض قواربهم الصغيرة حتى يصلوا سالمين آمنين إلى مستودع الكوكريين . هل توافق على هذا ؟ »

وافتر ثغر فلتشر عن نواجذه وقال : « لكأنما نقوم بتنفيذ أوامرنا بحذافيرها ! » ولم يستطع فلتشر مغالبة إعجابه بعبقرية جون ، وبحصافة كبير السائقين مارلون ، ومدير « لجنة الرعاية » ماكدونالد - لاختيارهما للعمل معاً .

واستمر هاربن جون فى حديثه قائلا : « أمر آخر كدت أنساه ! يقول الهنود إنهم يفضلون الرحيل فى وقت مبكر من الليل . وهذا معناه أن يرحل رجالنا فى أثناء العرض المسرحى فى الكنيسة بدلاً من أثناء حفل الشواء طبقاً للخطة القديمة » .

وبدا القلق على وجه فلتشر فقال له هاربن جون : «لا تقلق . فالهنود محنكون» .

الفصل الثامن

فى أثناء الغداء ، فى اليوم السابق لعيد الميلاد ، هبت ميليسا هارون لتعترض على قرار والدها بألا يحضر العرض المسرحى فى الكنيسة لانشغاله فى دورية المراقبة متطوعاً . واشتدت اعتراضاتها حتى صرخت آخر الأمر : «كيف تعتبر نفسك مسيحياً إذن ؟» وحملق فيها أبوها قائلا فى غضب : «لا تبالغى فى التعبير !» بينما انحازت أمها إلى صفها ، وقالت له : «إنها على حق يا حبيبى - كيف تستكثر الذهاب إلى الكنيسة مرة واحدة فى السنة ؟» ووجد هارون نفسه محاطاً بالهجوم والاعتراض فانفجر صارخاً فى وجه ابنته : «كنت أرجو ألا تضغطى علىّ كل هذا الضغط ، ولكن - مادمت قد اندفعت غير عابئة بشىء فلأقل لك إننى أبوك ، وإننى أمنعك الآن من الزواج من ذلك القسيس ! لست أقل تدينا من سائر الناس ولكننى لن أسمح لعناد ابنتى الوحيدة أن يحول بينها وبين من يقدر على توفير الحياة الكريمة لها » .

وردت ميليسا قائلة : «فليكن ! ولكننى إذا لم أتزوج من أريد ، فأقسم بحياتى ألا أتزوج أبداً من تريده أنت !»

«لسوف تتمنين يوما ما لو أنك تزوجتيه !»

واشتد غيظ ميليسا فصاحت : «إذا لم أستطع أن أتزوجه - فدعنى على الأقل أساعده الليلة !» ثم دقت جرس مائدة الغداء

فظهرت الخادمة على الفور ثائرة الأعصاب. إذ كانت تعرف طبع ميليسا الساخن، فصاحت بها ميليسا : « اذهبى فأحضرى عازف الهارمونيكا الأسود فوراً واجعليه ينتظر بالباب » .

وعندما وصل هاربن جون قالت له ميليسا فى نبرات حادة . « أحضر العربة بسرعة ! أريدك أن توصلنى إلى الكنيسة ! » وبينما وقف هاربن مذهولاً أضافت ميليسا : « أريدك أن تمكث طوال التدريب المسرحى بعد الظهر، وأن ترفع الستار وتقفلها أثناء التدريب » .

واعترض هاربن جون قائلاً : « ولكننى يا سيدتى الوحيد الذى يعرف موعد نضج الشواء بالضبط، ولابد أن أظل هناك حتى أرفعه من على النار ! ». وكان فى الحقيقة يريد ألا يكلفه أحد بشيء آخر فى عصر ذلك اليوم لا للإشراف فحسب على الشواء، ولكن للتأكد من بعض التفاصيل النهائية لعملية الهروب، بغية تفادى أية أخطاء .

ولما كانت ميليسا آن تتحرق شوقاً إلى الانفجار فقد صرخت : «لقد سمعت ما قلت ! أنت أسود مأجور ! فافعل ما آمرك به ! » ثم صرخت ثانيا تنادى أباها «بابا ! »

وتطلع هاربن جون الذى خاب أمله إلى وجه ميليسا وقد ارتسم عليه تعبير ينم عن أن كلا منهما قد وقع بين المطرقة والسندان، فاتجه بهدوء ليحضر العربة وذهنه يغلى باحثاً عن وسيلة يفلت بها أثناء العرض لبعض شأنه، إذ لم يكن هناك ثم مفر من طاعة أوامر الأنثى البيضاء الغاضبة. ميليسا آن .

وبدأ العرض المسرحي في الكنيسة، وبعد ساعة تقريباً، وعلى بعد ميل ونصف تقريباً، كان فلتشر راندول يصحب توم جريفز المزارع في جولة حول شرفة منزل راندول، يتشممان فيها الروائح المختلطة المنبعثة من قدور الطهي، والأواني الغاصة بشواء الخنزير ولحم البقر ولحم العجول والدجاج مما تم إعداده وتجهيزه، وما يصاحبه من سلاطات الكرنب والبطاطس، وفطائر البطاطا الحلوة، إلى جانب مخزون عامر من المشروبات الكحولية والجعة، بحيث تضمن قضاء أمسية لا تنمحي من الذاكرة.

وكان فلتشر قد اقنع أباه وأمه بضرورة بقائه في المنزل والتخلف عن العرض المسرحي في الكنيسة، حتى يستقبل من يتخلف من الضيوف عن العرض المسرحي ويقرر الحضور مبكراً إلى حفل الشواء عشية عيد الميلاد. أما توم جريفز فقد قرر البقاء مع فلتشر ليتأكد أن كل شيء على ما يرام ريثما يعود عبده الثمين هاربن جون من الكنيسة بعد أن يعزف الهارمونيكا للآنسة ميليسا آن هارون.

وفجأة أقبل رجلان على ظهر فرسين يركضان في ظلمة الليل، واتجها مباشرة إلى المنزل يقصدان الأنوار المتلألئة في الشرفة. كان أحدهما نحيلا ذا عينين ضيقتين يدعى ند سميذرز، وكان يعمل رئيساً لرجال الدورية. وسرعان ما هبط من على ظهر جواده واتجه نحو فلتشر الذى كان قادماً إليه وقال له: «أخبار

سيئة يا سيد راندول! ليس ما تود أن تسمعه عشية عيد الميلاد! يبدو أن ثم مؤامرة لهروب جماعي، إذ اختفى ثلاثة عبيد من مزرعة السيد هارون، ويبدو أن ستة قد اختفوا من أكواخ عبيدكم! وقد أرسلنا أحد رجال الدورية ليتحقق ويفتش الأكواخ الآن، ويحاول أن يعرف من سائر العبيد ماذا حدث».

وسأله فلتشر في نبرات تنم عن الأسى- وقد تمنى أن يقتنع الرجل بصدق أساه- «هل أنتم واثقون كل الثقة؟»- إذ كان يعرف ويستطيع أن يتصور الوسائل التي سيستخدمها المشرفون لاستخلاص المعلومات من العبيد.

وأجاب الرجل: «بل كل الثقة يا سيدي- أجل! لكم يحزنني أن أفسد عليكم حفل عضو مجلس الشيوخ وهذا الشواء الفاخر وما إليه ولكن-» وخيل إلى فلتشر أنه أحس نبرة سخرية في كلمات الرجل الذي واصل حديثه قائلا: «ولكن يبدو أن العملية قد خطط لها تخطيطاً محكماً. ولا يدري أحد كم مضى على هروبهم» وتوقف كبير رجال الدورية لحظة ثم قال: «وهناك أمر آخر. إننا نبحث عن السيد توم جريفز، وقالت لنا زوجته إننا ربما وجدناه هنا». وجاءه صوت توم جريفز ينادي من خلف فلتشر:
«ها أنذا! ما هي المشكلة؟»

والتفت كبير رجال الدورية سميذرز وأومأ إلى مساعده الذي كان يقف إلى جوار فرسه فتقدم منهما حاملاً صرة على جنبه. وتناول سميذرز الصرة وفكها فإذا هي سترة بنية اللون، قدمها إلى توم جريفز وسأله: «سيدي! أتعرف هذه السترة؟» وأجاب جريفز: «بالطبع! ستجد اسمي منقوشاً بالحبر داخل الياقة. لقد

أهديتها منذ عام تقريباً إلى أحد عبيدى- ذاك المسمى هاربن جون » .

وشعر فلتشر بهبوط فى معدته .

وسأله سميذرز بلهجة حادة : «وأين هو الآن ؟»

ورد توم جريفز : « إنك تسأل عن عبد أمتلكه .. عن ملك يمينى ! وإذن سأسألك لماذا تريد أن تعرف ؟ »

« لا بأس ! سأخبرك ! وجد هذه السترة رجل الدورية الذى اكتشف اختفاء العبيد . كانوا قد تركوها فى أحد أكواخهم . والسؤال الآن هو : ما الذى أتى بها إلى ذلك الكوخ ؟ »

وقال توم جريفز وقد صعقه احتمال فقدان هاربن جون : « إن عثورك على السترة لا يعنى وجود أى صلة بين هاربن جون والهروب » . وكان يحز فى نفس توم جريفز فقدان هاربن جون ، ليس فقط لأنه من ممتلكاته الثمينة ، ولكن لأنه أيضا نافع وذو صحبة ممتعة .

ورد سميذرز : « ربما كنت على حق ! ولكن علىّ أن آتى بعبدك وأسأله بعض الأسئلة الأليمة ، وأعتقد أننا سوف نستخلص منه جانبا من جوانب الحقيقة قبل أن نخلى سبيله ! أين هو الآن ؟ »

وأدخل فلتشر نفسه فى الحوار : « إنه فى العرض المسرحى فى الكنيسة .. وسوف أذهب معكم إلى هناك ، والأفضل أن أدخل إليه فأحضره إليكم بدلاً من إحداث بلبلة فى الكنيسة . فأمامنا ما يكفى من القلاقل هذه الليلة ! وبعد أن أسلمكم هاربن جون سأعود لأخبر والدى والجميع بما حدث » .

وانطلق الأربعة على خيولهم بسرعة الريح، وعندما وصلوا نزل فلتشر عن فرسه أولاً قائلاً: «سأعود بأسرع ما أستطيع» ثم دخل الكنيسة.

كان عرض ميلاد المسيح قد وصل إلى المرحلة التى يبدأ فيها الحكماء الثلاثة الرحيل- وكان القس الشاب براون يمثل دور رئيسهم- بعد أن رأوا المسيح الطفل نائماً فى المزود. وكانت ميليسا آن تعزف الهاربسيكورد وتوجه الموسيقى المصاحبة للعرض حيث يعزف هاربن جون الهارمونيكا، ويعزف عبدان من السود على الكمان خلف الممثلين- بينما ترددت الهمسات من شفاه الجمهور الحاشد الذى يمثل أسرات أصحاب المزارع، تؤكد استمتاعها بالعرض.

وعندما ظهر فلتشر راندول فجأة عند مدخل الكنيسة، بدا على وجوه القسيس براون وزميليه ممن يؤدون أدوار الحكماء، وعلى وجه ميليسا آن أيضا، ما جعل أفراد الجمهور يديرون رؤوسهم. وعندما انطلق فلتشر مسرعاً فى الممر المؤدى إلى المسرح لم يصدق النظارة عيونهم. ومر فلتشر بالصفوف الأولى حيث يجلس والده ووالدته وقد ارتسمت على وجهيهما آيات الإنكار، خصوصاً عندما صعد فلتشر إلى المسرح الذى كان مرتفعاً بعض الشىء عن الأرضية، وتخطى ميليسا آن الجالسة إلى الهاربسيكورد، واتجه مباشرة إلى هاربن جون الأسود الذى وقف يحدق فى عينيه والهارمونيكا لا تزال فى فمه.

وقال فلتشر فى اقتضاب: «اتبعنى الآن» ثم استدار فجأة وأهرع مهرولاً إلى باب غرفة المكتب التى تقع إلى اليمين فى

الجانب الخلفى من الكنيسة ، وهاربن جون لا يبتعد عنه سوى خطوة واحدة . وعندما دخلا الغرفة الصغيرة سأله فلتشر بسرعة : « هل حصانك فى الخارج ؟ »

« نعم ـ ماذا حدث ؟ »

« لا وقت للحديث » ـ وفتح الباب بقوة فوجدا أمامهما السلم المؤدى إلى الخارج . وكانت تصل إلى أسماعهما أولى غمغمات جمهور الكنيسة عندما صرخ فلتشر : « أحضر فرسك .. سوف أستعير حصان رجل آخر » . وهمهم هاربن جون بما يفيد الموافقة ، ولكنه لم يوجه إليه أية أسئلة ، بينما كان الجمهور قد بدأ يخرج من الكنيسة ، بل لقد سمع فلتشر صياح رئيس رجال الدورية سميذرز أثناء انطلاق الفرسين فى ظلمة الليل البهيم .

وصاح هاربن جون إلى فلتشر : « فلنفترق ! إذهب إلى المكان الذى أرشدتك إليه وسوف ألقاكَ هناك ! » وانطلق يخب بفرسه وقد أحنى رأسه فألصقه برقبة الفرس ليتفادى الاصطدام بأطراف الأشجار الخطرة التى يمر من تحتها .

وعندما وصل فلتشر إلى الغابة ، وقع حصانه فى حفرة من حفر القوارض البرية ، فمال إلى الأمام وانكسرت ساقه وصهل فى ألم شديد وسقط فلتشر من على ظهره ، ثم جاهد كى يقف على قدميه ، ولكنه سرعان ما وقع على ركبته بسبب الإصابة البالغة التى حلت بكعبه ، وانتابه شعور بالوحشة لم يعرفه طول حياته .

ولكنه سمع على البعد صوت البومة فتنفس الصعداء ، ووضع

راحتيه المضمومتين على فمه وحاول بكل طاقته أن يفعل ما علمه صديقه له . وسرعان ما أقترب صوت البومة الذى استجاب له .

وفحص هاربن جون كعب فلتشر وقال : « الحمد لله أنه غير مكسور ! ولكن الورم الذى بدأ بالفعل يدل على التواء خطير فى المفصل » . وحدق مباشرة فى عينى فلتشر وقال : « لم أكن واثقاً أننى سأراك ثانية » .

ورد فلتشر قائلاً : « وأنا أيضا . تصورت أنك هالك لا محالة ! »

وقال جون : « كان يمكن أن أضيع لولاك » وتوقف برهة طويلة ثم أضاف : « لم تكن مضطراً إلى فعل ما فعلت . فما الذى جعلك تأتى لإنقاذى ؟ »

وفكر فلتشر فيما يقوله جون ثم قال : « الحق أننى لم أفكر فى هذا الأمر على الإطلاق ! ولكننى فعلت ما فعلت وحسب . هذا كل ما فى الأمر » .

وقال جون : « لن نستطيع أن نستريح هنا أكثر من ذلك بل ينبغى أن نبدأ فى السير فأنا أعرف أنهم بدأوا يطاردوننا ، وربما أخذوا معهم كلابهم أيضا . وينبغى إما أن نقطع مسافة كبيرة جداً أو نختفى عن أنظارهم تماماً أثناء النهار » ثم نظر إلى فلتشر من جديد نظرة فاحصة وقال : « إنك ضخم الجسم ، ولكننى أستطيع أن أحملك إلى ظهر الحصان ، ونستطيع معا أن نركب حتى نصل إلى مخبأ أكثر أمنا » .

وأرغم فلتشر نفسه على الوقوف رافضاً مساعدة جون حتى

يختبر صلابته . وعندما داس على كعبه تقلص وجهه ألماً ، ولكنه نجح فى السير وثباً ثلاث خطوات فحسب ثم توقف .

« إنه يؤلمنى حقاً ـ ولكننى أستطيع السير ، خصوصاً إذا استندت إلى كتفك . ولكنى أريد أن أستريح دقيقة واحدة ـ فهو يؤلمنى حقاً » .

وسأله هاربن جون : « هل هرب الجميع ؟ »

ورد فلتشر : « أظن ذلك . يبدو ذلك مما سمعته ـ وهو ليس بكثير » .

وسأله جون : « أتستطيع أن تقول لى ما حدث ؟ أقصد ما الذى أفسد الخطة ؟ »

« بالتأكيد . لقد أعطيت سترة لشخص ما ، وتركها معلقة فى كوخه فوجدها رجال الدورية ، ووجدوا اسم توم جريفز مكتوباً عليها ، وقال لهم إنه أعطاك إياها » .

« يا عجبا كل العجب ! تعنى أنه لو لم يحدث ذلك ما كنا قد انطلقنا هكذا ؟ أفبعد كل ما دبرناه وأحكمنا تدبيره تأتى تلك الحادثة التافهة لتفسد مسعانا ؟ لو كنت استطعت الافلات من هذا العرض المسرحى لاستطعت ـ فيما أعتقد ـ أن الحظ أن العم بن لم يكن يرتدى السترة ، وكان الأجدر بى على أى حال ألا أعطيها له عندما أخبرنى أنه يراها أجمل من أن يرتديها » .

ونظر هاربن جون إلى فلتشر راندول ، ثم قال : « المؤكد أننا

لن نستطيع ـ لا أنا ولا أنت ـ العودة إلى هناك . ماذا ستفعل ؟ هل تدرى أين ستذهب ؟ »

« لم يكن لدىّ وقت للتفكير فى هذا ، إذ لم يكن هذا جزءاً من خطتى » .

واستغرق هاربن جون فى التفكير لحظات ثم قال : « الواقع أن كثيراً من الناس لا يدركون كم من البيض يخاطرون بكل ما يملكون ، حتى بأرواحهم ، لأنهم يعتقدون أن الرق خطأ » .

وانهمك فلتشر هو الآخر فى التفكير ثم قال : « وماذا ستفعل أنت ؟ وأين تذهب الآن ؟ »

« إلى الشمال وحسب . هذا هو كل ما أعرفه الآن » ثم قهقه جون وقال : « ربما استطعت أن أنشىء مطعماً صغيراً لتقديم الشواء الفاخر ـ أستطيع ذلك حقاً ـ وأن أعزف الموسيقى » .

وعاد فلتشر يرغم نفسه بعزم وتصميم على الوقوف ، مشيراً إلى جون أنه على استعداد لمحاولة السير ثانياً بمساعدته . وانقضت ساعتان وهما يتوغلان فى الغابة ، ثم عبرا جدولاً عريضاً واطمأنا إلى أنهما قد أفلتا من مطارديهما .

وفجأة أخرج جون الهارمونيكا من جيبه ، ووضعها على فمه ، وأخذ يصدر عليها صوت القاطرة البخارية ـ اللحن المميز « لقطار الهروب السرى » الذى لا يعزفه سواه .

وتوقف فجأة أيضاً وضرب بالهارمونيكا إحدى ركبتيه وقال : « اسمع ! لابد أن أتوقف عن هذا الهذر ! أنظر ! » وتطلع ببصره

طويلاً إلى النجم القطبى الساطع ، وتطلع معه فلتشر . « أنظر ! لقد بدأ الآن صباح عيد الميلاد. ولن تمر ساعتان حتى يشرق الفجر » .

ورفع الهارمونيكا ثانية إلى فمه وقال لفلتشر : « هذا لحن لا أعرف اسمه ، ولكنى أذكره منذ أن سمعته يُعزف ويُنشد فى عيد الميلاد الماضى وحصانى يسير متمهلاً بى وسط المهاجرين الألمان الذين استوطنوا الطرف الآخر من مقاطعة « آش » . لا أذكر إلا أصواتاً محدودة من الكلمات الألمانية التى كانوا ينشدونها. كانت تشبه Stille nacht (الليل الساجى) » .

ووضع جون الهارمونيكا على شفتيه قائلاً : « ولكن اللحن الذى عزفوه مازال فى أذنى. هذا هو » .

وعزف جون . واستمع فلتشر إلى لحن « الليل الساجى » بينما كان ضوء القمر يسطع فى ليلة عيد الميلاد علىّ وجه الرجل الأسود وهو يعزف ، وعلى وجه الرجل الأبيض وهو يستمع . وعندما انتهى جون من العزف لم ينبس أيهما ببنت شفة . ثم استأنف الرجلان السير ومن خلفهما يتدفق نور صبيحة عيد الميلاد فى السماء ، فتحولا إلى ظلين .

أدرك فلتشر أن حياته قد تغيرت الآن وإلى الأبد . وانتقل به سيال الفكر إلى والديه ، فأحس بالألم ومرارة الحرمان التى لن يتغلب أى الطرفين عليها أو يستوعبها إلا بعد وقت طويل . لقد نبذ الماضى نبذة لا رجعة فيها . كان يعرف أنه قد دمر حياتهما ، فمستقبل والده السياسى سيتحطم ، وسوف يصبح فلتشر راندول

فى نظر أبيه ـ بل فى نظر كل أهل الجنوب ـ خائناً إلى الأبد . أما أمه فسوف تنهار . واعتصره الألم وهو يتساءل فى نفسه إن كانت ستستطيع أن تتغلب يوما ما على العار الذى جلبه عليها ، وعلى الألم لفقدان ابنها الوحيد . لربما أحس كلاهما أنه قد مات . ولكن ، مهما كان ألم الحاضر فى قلبه ، واهتزاز المستقبل فى عينيه ، فقد أدرك فلتشر فى هذه اللحظة أنه قد نجح أخيراً فى أن يعيش مع نفسه عندما نجح فى ألا يعيش لنفسه . لقد قال لهاربن جون إنه غير واثق من مقصده أو مما ينتوى أن يفعله ـ ولكنه تذكر الآن أمراً لا شك فيه ، وهو أن لديه بعض الأصدقاء فى فيلادلفيا .

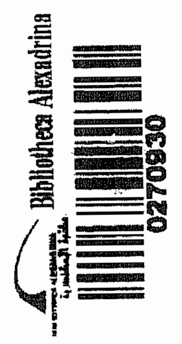
رقم الايداع بدار الكتب

٨٩ / ٥١٦٧

بعض إبداعات الأدب الأمريكى المعاصر ، تتسم بأنها فريدة ومتميزة فى محتواها وأدواتها . فهى تطرح قضايا وأفكارا تتصف بقدر هائل من الحيوية والجدلية ، وتستخدم فى ذلك أساليب غير مألوفة . وسلسلة « **من روائع الأدب الأمريكى المعاصر** » تكفل فهما عميقا للأوضاع فى ذلك البلد القارة ، الولايات المتحدة ، على نحو لاتتيحه أى قراءات مهما اتسعت عن أوضاعها الاجتماعية وحضارتها وسياساتها واقتصادها وعلومها وفنونها .. الخ .

ورواية « **عيد ميلاد جديد** » من هذه النوعية ، وذلك أن مؤلفها **اليكس هيلى** ، وهو صاحب رواية « **جذور** » الشهيرة ، حاصل على **جائزة بوليتزر** ويحظى بشهرة عالمية كواحد من أبرز الأدباء فى أمريكا .

الناشر



مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام

التوزيع فى الداخل والخارج : وكالة الأهرام للتوزيع
ش الجلاء ـ القاهرة

مطابع الأهرام التجارية ـ قليوب ـ مصر